جامعة عين شمس
كليـة الألســن
قسم اللغة العربية

مختـــارات

مـن النصوص الشعرية والنثـرية
مـن العصر العباسى

دكتـور
أحمد أمين مصطفى
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية الألسن

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٥١٢٠٨٤٧



مقدمة

هذه نصوص مختارة من الشعر والنثر من أدب العصر العباسى، وهو العصر الذهبى للأدب العربى، وقد اخترت هذه النصوص لكبار الأدباء الذين يشهد لهم مؤرخو الأدب بالفضل والسبق.

ووقع اختيارى على قصائد لأبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى فى أغراض مختلفة، وهؤلاء الأربعة من قمم الشعر العربى، كما اخترت من النثر رسالة على لسان أحمد بن طولون كتبها كاتبه جعفر بن عبدكان موجهة الى العباس بن أحمد بن طولون حين خرج على أبيه، واخترت أيضا المقامة الإبليسية، والمقامة الأسدية لبديع الزمان الهمذانى لما للمقامة من الأثر الواضح فى الأدب العربى.

وقد شرحت هذه النصوص شرحا وافيا يوضح معانيها، ويجلو مواطن الجمال والبلاغة فيها، والله أسأل أن ينفع بها طلاب العلم.

والله ولى التوفيق،،

د. أحمد أمين مصطفى

أستاذ الدراسات الأدبية بكلية الألسن

قال أبو تمام يمدح الخليفة المعتصم

١ - رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حليه يتكسر (١)

٢ - نزلت مقدمة المصيف حميدة ... ويد الشتاء جديدة لا تكفر (٢)

٣ - لولا الذي غرس الشتاءُ بكفه ... لاقى المصيف هشائما لا تثمر (٣)

٤ - كم ليلة آسى البلادَ بنفسه ... فيها ويوم وبله مثعنجر (٤)

٥ - مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يمطر (٥)

٦ - غيثان فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث مضمر (٦)

٧ - وندى إذا ادهنت به لمم الثرى ... خلتَ السحاب أتاه وهو معذِّر (٧)

٨ - أربيعنا في تسع عشر حجة ... حقا لهنّك للربيع الأزهر (٨)

٩ - ما كانت الأيام تُسلب بهجة ... لو أن حسن الروض كان يعمَّر (٩)

١٠ - أو لا ترى الأشياء إن هي غُيِّرت ... سمجت وحسن الروض حين تُغيِّر

١١ - يا صاحبيّ تقصّيا نظر يكما ... تريا وجوه الأرض كيف تَصوّر (١٠)

١٢ - تريا نهاراً مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر (١١)

١٣ - دنيا معاش للورى حتى إذا ... جُلي الربيع فإنما هي منظر

١٤ - أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نَوْرا تكاد له القلوب تُنوِّر (١٢)

١٥ - من كل زاهرة ترقْرق بالندى ... فكأنها عين إليك تَحدّر (١٣)

١٦ - تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفّر (١٤)

١٧ - حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين في خلع الربيع تبختر (١٥)

١٨ - مصفرة محمرة فكأنها ... عُصَب تيمّن في الوغى وتمضّر (١٦)

١٩ - من فاقع غضّ النبات كأنه ... در يشقق قبل ثم يزعفر (١٧)

٢٠ - أو ساطع في حمرة فكأنما ... يد نو إليه من الهواء معصفر (١٨)

٢١ - صُنع الذي لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعدَ إذ هو أخضر

٢٢ ـ خلق أطل من الربيع كـأنه ... خلق الإمام وهديه المتيسّر

٢٣ ـ في الأرض من عدل الإمام وجوده ... ومن النبات الغضّ سُرج تَزهر (١٩)

٢٤ ـ تُنسى الرياض وما يروّض فعلُه ... أبدا على مرّ الليالي يُذكر

٢٥ ـ إن الخليفة حين يُظلم حادث ... عين الهدى وله الخلافة محجر

٢٦ ـ كثرت به حركاته ولقد تُرى ... من فترة وكأنها تتفكّر (٢٠)

٢٧ ـ مازلت أعلم أن عقدة أمرها ... في كفه مذ خليت تتخيّر (٢١)

٢٨ ـ سكن الزمان فلابد مذمومة ... للحادثات ولا سوام يُذعر (٢٢)

٢٩ ـ نظم البلاد فأصبحت وكأنها ... عقد كأن العدل فيه جوهر

٣٠ ـ لم يبق مبدى موحش إلا ارتوى ... من ذكره فكأنما هو محضر (٢٣)

٣١ ـ ملك يضل الفخر في أيامه ... ويقل في نفحاته ما يكثر (٢٤)

١ ـ تمرمر تتمرمر أى تموج وتضطرب لينا ونعمة الثرى التراب أى يتكسر النبات لرطوبته إذا ميلته الريح .

٢ ـ جديدة بمعنى طرية لأن الأرض نديت حتى تنبت الحبوب .

٣ ـ هشائم جمع هشيمة وهى الشجرة اليابسة .

٤ ـ آسى الشتاء البلاد بنفسه — وبله مثعنجر مطره غزير .

٥ ـ لأنه عقيب المطر يكون أشد زرقة .

٦ ـ مضمر لأنه لا يرى ولكنه رطوبة الهواء .

٧ ـ اللمة شعر فى الرأس والمراد قمم النبات ـ يعتذر السحاب بسبب المطر القليل .

٨ ـ بعد تسع عشرة سنة بعد المائتين من الهجرة ـ الأزهر الأعظم .

٩ ـ يعمر يدوم .　　　　١٠ ـ تتصور بألوان الزهر .

١١ ـ خالط بياض الزهر والأنوار بياض النهار فكأنه مقمر لا مشمس .

١٢ ـ لأن بطونها تسقى العروق الماء الذى به تحصل الأنوار .

١٣ ـ أى يتحدر دمعها .　　١٤ ـ الجميم النبات المتكاثف .

١٥ ـ الوهدة ما انخفض من الأرض ، والنجد ما ارتفع منها .

١٦ ـ عصب رايات ، ورايات اليمن صفر ، ورايات مضر حمر .

١٧ ـ الفاقع من صفات الأصفر ، هذه الأنوار كانت كالدر فى البياض ، ثم انشقت فخرج نورها الأصفر .

١٨ ـ أى ينزل إليه من الهواء ما يعصفره .

١٩ ـ سرج جمع سراج وهو المصباح .

٢٠ ـ كثرت الحركات فيقتل ويمنح ويولى ويعزل .

٢١ ـ تختاره مذ خليت لا تؤثر عليه أحدا .　٢٢ ـ سوام مطلقة بلا حارس .

٢٣ ـ مبدى موضع بالبدو ، محضر من الحضر .

٢٤ ـ النفح الريح الباردة ، وهنا العطاء لأنه يبرد غليل طالب العطاء .

* * *

أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائى، ولد بقرية قرب دمشق، ونشأ بدمشق، وتردد على مجالس العلم، وظهرت شاعريته المتدفقة، ثم قصد مصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى، وأقام بها مدة يسقى الماء فى مسجد عمرو بن العاص، ويحضر مجالس العلم والأدب، ثم عاد الى دمشق، ثم ذهب الى بغداد مقر الخلافة، العباسية، وتردد بين بغداد ودمشق، وتزوج أبوتمام وكان له أولاد كثيرون، وكان أبوتمام حاضر البديهة يحب المزاح ويميل الى اللهو، ولكنه يترفع على الدنايا.

وكان أبو تمام يكثر من المديح، ومدح الخليفة المأمون، واتصل بالخليفة المعتصم. ومن مدائحه فيه هذه القصيدة التى ندرسها، ومدح كثيرين من القادة الذين ظهروا فى الحروب ضد الروم وضد الخارجين على الدولة، كما أنه اهتم بالغزل وأكثر منه فى مطالع القصائد، كما برع فى وصف الطبيعة وشخصها ومزج بين الطبيعة والمرأة، وصنف كتبا منها (ديوان الحماسة)، وهو مختارات لبعض الشعراء البارزين، ومات أبوتمام سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢هـ.

وغلبت على هذا العصر مدرستان، مدرسة يتزعمها الشاعر البحترى، ويقف موقفا وسطا، يقرأ ما أثر عن العرب، ويقرأ ما ترجم عن اللغات الأجنبية ويقتبس منه ويطبعه بالطابع العربى مع تلوينه بلون العصر، أما المدرسة الثانية فيتزعمها أبو تمام ونطلق عليها مدرسة المجددين، وقد ألم أبو تمام بمعارف عصره العربية والأجنبية من التاريخ والفلسفة وعلم الكلام والمنطق والنحو والبلاغة، وكان يحفظ كثيرا من الشعر القديم والحديث.

وظهرت آثار هذه الثقافات فى شعر أبى تمام وفى خصب عقليته، وكان يغوص على المعانى ويأتى بالجديد منها، كما امتاز بروعة التصوير والأفتنان فى تركيب الصور، وكان يكثر من الصور حتى تتداخل وتغمض أحيانا، كما كان يهتم بالمحسنات البديعية وأتى بما يثير الإعجاب أحيانا ويثقل على الأسماع أحيانا أخرى، واختلف الناس فى موقفهم من أبى تمام والبحترى، وتعصب لكل شاعر منهما فريق، ومهما قيل فإن أبا تمام يعد فى الطبقة الأولى من شعراء العربية.

شرح القصيدة

أنشأ أبو تمام هذه القصيدة أساسا فى مدح الخليفة المعتصم، ولكنا نراه يهتم اهتماما كبيرا بوصف الطبيعة فى مطلع الربيع بعد أن انقضى فصل الشتاء وقرب فصل الصيف، وأبو تمام شاعر ذواقة يرى الجمال فى كل شىء ويرى الجمال فى كل فصل، وهو على العكس من كثير من الشعراء الذين لا يرون فى الشتاء جمالا، فأبوتمام يرى أن الشتاء يبعث الحياة فى الطبيعة بما يبعثه من الأمطار والرطوبة، ولولاه لصارت هشيما يابسا فى فصل الصيف.

١ ـ ٤ ـ يصف الشاعر جمال الحياة وما تخللها من رقة وتفتح وازدهار حتى غدت تموج باللين والنعمة، وحتى غدا النبات يتمايل ويتثنى لرطوبته إذا ميلته النسائم، وقد حل فصل الربيع وأوشك الصيف على القدوم ومازالت آثار الشتاء بادية فى الطبيعة حيث النداوة والطراوة فى كل مظاهر الحياة، ولولا ما صنعه الشتاء بالطبيعة لصارت النباتات والأزهار هشيما يابسا، فقد أنعم الشتاء على الأرض بما بعثه من حيوية وبما أرسله من أمطار وأنداء بعثت الرى والازدهار.

٥ ـ ٧ ـ تبدو مظاهر الجمال فى فصل الشتاء حين تسقط الأمطار وحين تقلع، فحين تسقط الأمطار ويختفى الصحو يعقب ذلك صحو ونضارة حيث تكون السماء أشد زرقة وإشراقا ، فإذا كانت الأمطار تحيى الطبيعة وتفتح أزاهيرها فإن الصحو غيث خفى يبعث الخصب ويبدى مظاهر الجمال ويجعل الحياة أشد إشراقا، وفى المساء يعانق الندى قمم النبات فكأنه طيب تدهن به هذه القمم، وكأن المطر يعتذر للنبات لعدم زيارته، ويقدم هذا الندي هدية لهذه النباتات.

٨ ـ ١٠ ـ يخاطب الشاعر الربيع فى هذا العام التاسع عشر بعد المائتين، وقد مضى العام الأول من خلافة المعتصم، ويقول : إنه أجمل ربيع مر بنا، وهنا يمزج الشاعر بين المديح والوصف، ويرى أن الحياة تزداد جمالا حين يزدهر الروض وتتفتح الأزهار ، ولكن تغير الفصول لا يسلب الحياة جمالها.

١١ - ١٣ - يخاطب الشاعر صاحبيه لافتا أنظارهم الى جمال الطبيعة، ويحثهما على التعمق فى استشفاف مظاهر الجمال، ويبدو هنا عمق النظرة وفلسفة الفكرة، ويقول: إن بياض النهار وسطوع ضوء الشمس يخالط لون الزروع والأزهار فيبدو الجو كأنه مقمر لا مشمس، وقد خلق الله الحياة لنعمل فى سبيل الكسب والعيش، وحين يحل الربيع تكون الحياة للمتعة بالجمال ومناظر الطبيعة الخلابة.

١٤ - ٢١ - يصف الشاعر مظاهر الطبيعة الجميلة وتفتح الأزهار، ويلتفت أبوتمام الى القوة الكامنة وراء المظاهر البراقة، والتى تبعث الحياة فى الطبيعة، ويقرن ذلك بوصف مشاعره تجاه مظاهر الطبيعة فيقول: إن القوة الكامنة وراء مظاهر الطبيعة تخلق فى الطبيعة الظاهرة النور والزهر، ويجعل القلوب تنور حين ترى هذا النور، وحين ترى الزهرة تترقرق بالندى تراها كأنها عين تنظر الى الرائى وتسيل دموعها.

ويمزج أبوتمام بين الطبيعة والمرأة، ويرى الزهرة تتمايل على فرعها بين النباتات فتظهر مرة وتختفى أخرى وكأنها عذراء تنظر من بين الستور فيظهر وجهها ثم تختفى حياء وخفرا، وتكتس الأرض كلها مرتفعاتها ومنخفضاتها بالنبات والزهر وكأن الأرض كلها تلبس أثوابا قشيبة وتتمايل معجبة بنفسها وبما ألبستها الطبيعة من ثياب براقة، وتبدو الأزهار والعيدان بألوانها الصفراء والحمراء فكأنها رايات يمنيه ومضرية، ورايات اليمن صفراء، ورايات مضر حمراء، ويتعمق الشاعر فى وصف الألوان، فالزهر الأصفر كان قبل تفتحه فى بياض الدر ثم انشق فخرج منه الزهر الأصفر الفاقع كأنه مطلى بالزعفران، أما الزهر الأحمر فتسطع ألوانه فكأن الهواء قد طلاه بالعصفر، وتتجلى هنا قدرة الله الذى يخرج النبات فى خضرته الزاهية ثم يولد منه الأزهار بألوانها المتعددة.

٢٢ - ٣١ - ينتقل الشاعر الى مدح الخليفة المعتصم، ويمزج بين المدح والوصف أيضا،ويقول: إن صنيع الزمان فى فصل الربيع كصنيع الإمام فى خلقه

وهديه، فقد نشر العدل وأغدق العطاء، وتعانق جمال الربيع وجمال عهد الخليفة فأضاء الدنيا، وقد ينسى جمال الربيع حين يزول، أما جمال أيادى الخليفة فلا ينسى.

ويستمر فى مدح الخليفة ويعقد رابطة قوية بينه وبين الخلافة حتى إن الخلافة لا ترضى إلا به، ويجعل الخلافة كمحجر العين والمعتصم فيها كسواد العين، وأفعاله العظيمة تتوالى على مر الأيام، فهو يثيب ويعاقب ويولى ويعزل من يشاء لاراد لأمره وكأن الخلافة قبله كانت تتفكر وتتخير من يتولاها فاختارته مدبرا لأمورها، وفى عهده أمنت البلاد من الحوادث المكدرة، وآمن الناس حتى السوائم التى ترعى لا تخاف شيئا يذعرها، وصار العدل عنوان الخلافة وجوهر عقدها، وازدان كل شىء فى الدولة العباسية، وهنا يقف الكلام عاجزا لا يجد ما يعبر به عن عظمته ويوفيه حقه.

* * *

نقد القصيدة

أنشأ أبوتمام هذه القصيدة فى مدح الخليفة المعتصم بعد مضى عام واحد على توليه الخلافة لأن المعتصم تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ بعد وفاة أخيه المأمون، وأبو تمام شاعر الطبيعة وله مبتكرات عديدة فى هذا المجال، ونراه هنا يستغرق أكثر من نصف القصيدة فى وصف الطبيعة فى مطلع الربيع بعد انقضاء فصل الشتاء، وأبوتمام شاعر ذواقة يرى الجمال فى كل شيء، وإذا كان كثير من الناس لا يرون فى فصل الشتاء جمالا فإن أباتمام يرى فصل الشتاء صاحب اليد الطولى فى تفتح الطبيعة وازدهارها وما تزخر به من الطراوة بما يبعثه من الأمطار والرطوبة التى تظل الطبيعة محتفظة بها أيام الصيف.

ومطلع القصيدة غير تقليدى حيث لم يبدأ بالغزل فى أى صورة من صوره، وكان البدء بالغزل مازال سائدا على الرغم من ثورة أبى نواس عليه ودعوته الى استبدال الخمرة بالأطلال، ولم تلاق هذه الدعوة نجاحا كبيرا لأن أبانواس كان شعوبيا متعصبا لضد العرب، ولأنه دعا الى افتتاح القصائد بوصف الخمرة والاسلام يحرم الخمرة.

ويتميز أبوتمام بالمزج بين المدح ووصف الطبيعة وبالمزج بين الغزل والطبيعة، ويتميز بالتشخيص وبالتجسيم، والتشخيص إبراز الأشياء فى صورة انسان حى، والتجسيم إبراز المعنوى فى صورة حسية مجسمة، واستطاع أبوتمام أن يصور الحركات فهو يصور حركة النبات وتمايله بقوله: يتمرمر ويتكسر أى يتثنى، والتعبير بالفعل الماضى (رقت) لتأكيد الحدوث، ويوحى بالنعيم والشفافية، أما التعبير بالفعل المضارع فهدفه استحضار الصورة، والشاعر هنا يعلن عن جمال الطبيعة فى فصل الربيع واستمرار مظاهر الجمال التى غرسها الشتاء فى بواطن الحياة، ونرى التشخيص فى قوله: (يد الشتاء) حيث جعل للشتاء يدا، وفى قوله: (غرس الشتاء بكفه) حيث جعل للشتاء كفا وأسند اليه فعلا من أفعال الانسان وهو الغرس، والفعل غرس يوحى بالعمق والاستقرار، المصيف والشتاء طباق.

كم خبرية تفيد الكثرة، آسى توحى بالتعاطف بين المطر والبلاد، مثعنجر لفظ قديم ثقيل على اللسان، وأبوتمام يتميز بعمق المعانى وفلسفتها والقدرة على التمييز بين المعانى الدقيقة والموازنة بينها، وهنا يتحدث عن المطر ويتحدث عن الصحو الذى يعقب المطر، ويجعله الشاعر غيثا آخر، ذلك لأن الغيث يروى الأرض والنبات والأزهار ويبعث الخصب والازدهار، وهذا ظاهر للعين، أما الصحو فإنه غيث مضمر خفي يكاد يمطر لشدة رزقته، وهو يؤثر فى الجو ويعطى رطوبة فى الهواء، وهذه نظرة نفاذة فاحصة، يذوب الصحو وبعده صحو مقابلة، والفعل يذوب يوحى بزوال الصحو تماما لغزارة الأمطار، وهنا طباق بين ظاهر ومضمر، ادهنت لم الثرى استعارة مكنية شبه قمم النبات بإنسان يدهن رأسه، والفعل ادهن يوحى بطيب رائحة الندى وكأنه طيب يدهن به، ولمم هنا مناسبة لأن اللمة الشعر فى الرأس وأعلى النبات هو الذى يصيبه الندى، وإذا تفيد التوكيد، والفعل أتاه استعارة مكنية.

واستمر الشاعر فى حديثه عن الربيع وجماله وفضل ربيع هذا العام على غيره وأشار إشارة تاريخيه الى السنة دون أن يخرج الى مجال علمى جاف، وجاء هذا التحديد بمناسبة مرور عام على خلافة المعتصم، ونادى الربيع وشخصه وأجرى معه حديثا، وهنا نداء للتعظيم وأكد تفوق هذا العام بقوله: (حقا) وبأداة التوكيد إن،وباللأم المقترنة بخبر إن، وبوصف الربيع بالأزهر وهو اسم تفضيل مقرون بأل يفيد التفضيل المطلق، والفعل (تسلب) يوحى بأن حسن الروض شيء عزيز يحرص الناس عليه، وهنا طباق بين تسلب ويعمر، أو لا ترى أسلوب إنشائى استفهام يفيد التقرير (دخلت الهمزة على نفى)، سمج فعل يوحى بالقبح والنفور، وفى البيت مقابلة بين السماجة عند التغيير والحسن عند التغيير فى الربيع.

يا صاحبى نداء الصاحبين تقليد موروث عن الجاهلية حيث كان العرب يسيرون ثلاثة معا خوفا من عدو أو وحش أوجن كما كانوا يعتقدون، وهنا أسلوب انشائى نداء للتنبيه، تقصيا أسلوب انشائى أمر للإرشاد، والفعل تقصيا

ملائم لهذا الموقف الذى يحتاج الى النظرة العميقة، وهنا مقابلة بين (نهارا مشمسا) وهو مقمر، قد للتأكيد، وهنا صورة كلية بديعة حيث شبه الجو فى النهار حين يمتزج به لون الزروع والأزهار بالجو فى ضوء القمر لأن الناظر الى الخضرة وألوان الأزهار يتغير فى عينيه لون الضياء ويمتزج به لون النبات والزهر، وهنا دقة الفكرة وعمق النظرة وروعة التصوير والمقابلة بين المناظر، والبيت الثالث عشر يحوى فكرة تنبىء عن مدى حب أبى تمام للربيع حيث جعل الدنيا معاشا للورى فإذا حل الربيع فهي للمتعة، وأكد هذه الفكرة بأسلوب قصر أداته إنما (إنما هى منظر) وهنا مقابلة.

ثم يتحدث الشاعر عن قوتين إحداهما ظاهرة للعيان والأخرى خفية مؤثرة وتشترك القوتان فى خلق الأزهار وإبراز الجمال فى الكون، فالقوة الباطنة تؤثر فى خلق النور، والقوة الظاهرة تكون الأزهار وتجسمها أمام أعيننا، واختار الفعل (أضحى) لأن الضحى وقت النور الساطع، وتصوغ فعل مضارع لاستحضار الصورة والاستمرار يصور لنا العمل والحركة، بطونها وظهورها طباق ، والشاعر يصور مشاعره مع تصوير هذا الخلق فقلبه يكاد ينور لمرأى النور، ولم ينس اهتمامه بالمحسنات البديعية فأتى بالجناس بين نور وتنوّر.

ترقرق أى تترقرق وهو فعل يصور حركة الندى على وجه الزهرة، غير أن أبا تمام لم يوفق فى التشبيه فى هذا البيت حيث شبه الزهرة يترقرق فيها الندى بالعين تترقرق فيها الدموع، والجو النفسى مختلف فى المشبه والمشبه به، ويعودأبوتمام الى الوصف الجميل والتصوير الخلاق فيربط بين الطبيعة والمرأة، وأبوتمام أول من مكن لهذا الربط كما نرى هنا حيث يرسم صورة مركبة ويشبه الزهرة وهى تتمايل وتظهر من بين النبات ثم يحجبها النبات الطويل فيشبهها بعذراء تتطلع من بين الستور ثم يغلبها الحياء فتختفى، وهى صورة مليئة بالحركة والحيوية والعاطفة، وهنا طباق بين تبدو ويحجبها، وبين تبدو وتخفر لأنها تتوارى ، واختار العذراء لأنها أشد حياء، وحتى تفيد الغاية، وعطف النجاد على الوهدات يفيدالشمول، ولفظ تتبختر يوحى بالجمال والزهو، مصفرة محمرة لأن

هذين اللونين هما الغالبان على الزهر، وهنا تشبيه حيث شبه الورود الصفراء والحمراء برايات اليمن ومضر وذكر طرفى التشبيه، وفى البيت التاسع عشر تشبيه أيضا وهنا شبه النبات فى حالتيه حيث يكون أبيض ثم ينشق فيخرج منه زهر مصفر اللون فشبهه بدرّ انشق ثم طلى بلون الزعفران، وهذا تشبيه تمثيلى، غصن توحى بالطراوة، در توحى بقيمته العظيمة، والفعل يشقق يعطينا الحركة والانتقال من حالة الى حالة، ساطع توحى بوضوح اللون وتألقه، وهنا استعارة مكنية حيث شبه الهواء بإنسان يطلى الزهر بالعصفر ثم يلتفت الى القوة الإلهية العظمى الكامنة، وراء كل شىء والتى تحول مظاهر الحياة من حالة الى حالة.

وفى اليبت الثانى والعشرين ينتقل الشاعر الى مدح الخليفة المعتصم مازجا بين المدح ووصف الطبيعة، ويشبه التصرفات الطبيعة الكونية فى فصل الربيع بخلق الخليفة وهديه لرعيته، وعلى عادة أبى تمام فى التجسيم والتشخيص يجعل الخلق الجميل يطل من الربيع وهنا استعارة مكنية، ثم يصف الخليفة بصفات متعددة حيث وصفه بالخلق الجميل وهدايته لرعيته أو قيادته الرشيدة، ثم يصفه بالعدل والجود، وهما أهم صفتين مطلوبتين فى الخليفة، ويجعل العدل والجود وجمال الطبيعة سرجا تنير الحياة، ثم يفضل أفعال الخليفة على جمال الطبيعة، فقد ينسى جمال الطبيعة حين يغيب، أما أفعال الخليفة فخالدة على مر الليالى يرددها الخلائق، ولفظ أبدا يفيد الدوام، وهنا طباق بين ينسى ويذكر.

وفى البيت الخامس والعشرين يأتى أبوتمام بصورة مبتكرة تربط بين الخلافة والخليفة برباط لا ينفصم، فيجعل الخلافة محجرا للعين والخليفة إنساناً يهدى الناس فى الظلمات الحالكة، وأكد ذلك بأداة التوكيد إن، ونرى المقابلة بين يظلم حادث وعين الهدى، وذكر أن الخليفة دائب العمل يولى ويعزل، ويعفو ويقتل وهكذا، وهنا مقابلة بين كثرت حركاتها وتتفكر، وشخص الخلافة وجعلها تفكر فترة من الزمان لكى تختار أحق الناس بها، وأكد بقد، والحقيقة أن الخليفة المأمون كان خليفة مثاليا ولكنها عادة الشعراء المادحين فى تفضيل كل خليفة يتولى

الخلافة، على أنه ذكر أنها اختارته مذخليت أي منذ مات الخليفة السابق، وبذلك نفى العيب عن الخليفة المأمون.

وقوله: سكن الزمان توحى بهدوء الرعية واطمئنانها، وأكد ذلك فنفى حدوث أى حادثة تعكر صفو الحياة، وشخص الحادثات وجعل لها يدا، ولتأكيد العدل والطمأنينة جعل السوائم ترعى مطمئنة لا يخيفها عدو، وقوله: نظم البلاد توحى بالعدالة.

والمساواة وجمال الحياة حتى إنه شبهها بالعقد تنتظم حباته وتزين من يتقلد به، ثم ركب الصورة فجعل العدل جوهر الحبات أي أكبر الحبات وأبرزها، وهنا تشبيهان شبه الحياة الجميلة بالعقد، وشبه العدل بجوهر الحبات، ولفظ أصبحت يوحى بأن الحياة أصبحت مشرقة فى عهده لأن الصباح زمان الإشراق، وفى البيت الثلاثين أتى بأسلوب القصر للتأكيد وأداته النفى والاستثناء فأكد أن فضل الخليفة عم كل بقعة حتى صارت البوادى كالحواضر، وهنا تشبيه، وفى البيت الأخير (يضل الفخر) توحى بحيرة الفخر وعجزه عن الإحاطة بكل أياديه، ولأن العطاء أهم شيءعند الشعراء أكد جود الخليفة وأنه يفوق كل جود، وأتى بطباق حيث وضع (يقل) بجانب (يكثر) ليبرز تواضع كل عطاء بجانب عطاء المعتصم.

سـمـات أسلوب أبى تمام - يمتاز بعمق الأفكار والغوص على المعانى والتجديد فيها والإتيان بالإشارات التاريخية والعلمية، والمزج بين الأغراض كالمدح والوصف، والمزج بين المرأة والطبيعة، كما يمتاز بالمبالغة، وعرف أبوتمام بسعة الخيال والتشخيص والتجسيم وابتكار الصور وتركيبها كما عرف بدقة الألفاظ وحسن اختيارها وملاءمتها للمعنى المراد، والإتيان بالألفاظ الغامضة أحيانا، ويهتم بالمحسنات البديعية ويكثر من الطباق والجناس.

* * *

قال البحترى يمدح المتوكل ويصف البركة

أنشأ المتوكل حديقة للحيوانات الوحشية، وكانت البركة ضمن هذه الحديقة الواسعة كماكان أمام البركة قصر فخم للخليفة.

١ - ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ... نعم ونسألها عن بعض أهليها

٢ - يا دمنة جاذبتها الريح بهجتها ... تبيت تنشرها طورا وتطويها [١]

٣ - لازلت فى حلل للغيث ضافية ... ينيرها البرق أحيانا ويسديها [٢]

٤ - إن البخيلة لم تنعم لسائلها ... يوم الكثيب ولم تسمع لداعيها [٣]

٥ - مرت تأوّدُ فى قرب وفى بعد ... فالهجر يبعدها والدار تدنيها [٤]

٦ - قد أطرق الغادة الحسناء مقتدرا ... على الشباب فتصبينى وأصبيها [٥]

٧ - يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات إذا لاحت مغانيها [٦]

٨ - بحسبها أنها فى فضل رتبتها ... تعدّ واحدة والبحر ثانيها

٩ - ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها [٧]

١٠ - أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها ... من أن تعاب وبانى المجد يبنيها [٨]

١١ - كأن جنّ سليمان الذين ولوا ... إبداعها فأدقوا فى معانيها

١٢ - فلو تمر بها بلقيس عن عرض ... قالت هى الصرح تمثيلا وتشبيها [٩]

١٣ - تنصبّ فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها

١٤ - كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاويها [١٠]

١٥ - إذا علتها الصَّبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها [١١]

١٦ - فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها ... وريق الغيث أحيانا يباكيها [١٢]

١٧ - إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

١٨ - لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها

١٩ ـ يعمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقض في جو خوافيها [١٣]

٢٠ ـ لهن صحن رحيب في أسافلها إذا انحططن وبهو في أعاليها [١٤]

٢١ ـ صورا إلى صورة الدلفين يؤنسها منه انزواء بعينيه يوازيها [١٥]

٢٢ ـ تغنى بساتينها القصوى برؤيتها عن السحائب منحلا عزاليها [١٦]

٢٣ ـ كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها

٢٤ ـ وزادها زينة من بعد زينتها أن اسمه حين يدعى من أساميها [١٧]

٢٥ ـ محفوفة برياض لاتزال ترى ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

٢٦ ـ إن الخلافة لما اهتز منبرها بجعفر أعطيت أقصى أمانيها [١٨]

٢٧ ـ أبدى التواضع لما زانها رعة منه ونالته فاختالت به تيها [١٩]

٢٨ ـ إذا تجلت له الدنيا بحليتها رأت محاسنها الدنيا مساويها

٢٩ ـ يا ابن الأباطح من أرض أباطحها في ذروة المجد أعلى من روابيها [٢٠]

٣٠ ـ ما ضيع الله في بدو ولا حضر رعية أنت بالإحسان راعيها

٣١ ـ بثثت فيها عطاءزاد في عدد الـ عليا ونوهت باسم الجود تنويها [٢١]

٣٢ ـ أعطاكها الله عن حق رآك له أهلا وأنت بحق الله تعطيها

* * *

١ ـ الدمنة آثار الدار

٢ ـ ضافية طويلة متسعة، ينيرها من نار الثوب وأناره مدخيوطه عرضا، أسداه مدخيوطه طولا.

٣ ـ الكثيب التل من الرمل.

٤ ـ تأود تتعطف وتتمايل.

٥ ـ الطرق الزيارة ليلا.

٦ـ المغنى المنزل الذى غنى به أهله ويقصد المقاصير.

٧ ـ تباهيها تفاخرها.

٨ ـ يكلؤها يحفظها.

٩ ـ عن عرض من جانب، عن عرض على غفلة، بلقيس ملكة سبأ باليمن، الصرح القصر الذى بناه سليمان.

١٠ ـ السبيكة القطعة المذوبة المفرغة فى القالب.

١١ ـ الصبا نسيم رقيق ـ الحبك الطرق المتكسرة، الجواشن الدروع جمع جوشن، المصقول المجلو، حواشيها جوانبها.

١٢ ـ الريق اليسير.

١٣ ـ الخوافى ريشات بعد القوادم التى فى أول الجناح ـ والمقصود وصف حركة الخوافى فى الجو.

١٤ ـ الصحن حوض أقيم فى أسفل البركة ـ البهو المكان الواسع.

١٥ ـ صور مائلات الواحدة صوراء، الدلفين دابة بحرية تنجى الغريق، يشير الى تمثال الدلفين الذى كان مقاما على هذه البركة فى مواجهة الصحن، الانزواء الانقباض.

١٦ ـ تغنى تكتفى، عزاليها جمع عزلاء وهى مصب الماء من القربة ونحوها أى المطر المنهمر.

١٧ ـ كانت تدعى البركة الجعفرية نسبة الى جعفر المتوكل.

١٨ ـ اهتز منبرها أي اعتلاه هذا الخليفة .

١٩ ـ الرعة الورع.

٢٠ ـ الأباطح جمع الأبطح، وأبطح مكة مسيل واديها، أي من قريش الذين ينزلون أباطح مكة.

٢١ ـ نوه به أشاد به وأظهره.

* * *

الشاعر البحترى

. هو أبو عبادة الوليد بن عبيد، ولد بمنبج سنة ٢٠٤ وتوفى شنة ٢٨٤هـ، وهو شاعر عربى من أصل يمنى، وينتمى الى قبيلة طيىء، والبحترى نسبة الى عشيرته بحتر وذهب فى طفولته الى الكتاب فحفظ القرآن والشعر، ثم تردد على حلقات العلم فى المساجد، وتعلم اللغة والنحو والفقه وعلم الكلام ، وقال الشعر مبكرا وذاع صيته فى ربوع الدولة العباسية .

وسافر البحترى فى شبابه الى مدينة حلب، وتعرف على علوة، وكانت أمها مغنية، وظل يذكر علوة فى شعره طوال حياته على الرغم من زواجها بغيره، ثم سافر الى حمص، وكان أبوتمام يقيم بها، وكان ذائع الصيت والشعراء يعرضون عليه نتاجهم، وعرض عليه البحترى أشعاره فأعجب بها أبو تمام ونصحه نصائح قيمة .

وقد أثرى البحترى ثراء عظيما لكثرة ما ناله من الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة نظير مدائحه القيمة، ولكنه مع ذلك ظل يشكو الفقر وضيق العيش، وكان بخيلا رث الهيئة لا يعنى بمظهره، كما كان مغرورا ينشد شعره ويتمايل فخرا ويقول : (الله) وتزوج البحترى وأنجب .

واتصل البحترى بكبار رجال الدولة ومدحهم، ومن أشهر ممدوحيه الخليفة الواثق ثم الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، ونال جوائزهما وأثرى ثراء عظيما، وكان البحترى حاضرا فى المجلس الذى قتل فيه الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان على يد الأتراك، وحزن لمقتلهما ورثاهما وهجا الأتراك وهجا الخليفة المنتصر الذى تولى الخلافة بعد مقتل والده الخليفة المتوكل وكان المنتصر متهما بالتآمر مع الأتراك على قتل والده، ولكن البحترى سافر الى الحجاز وحج، وعندما عاد الى بغداد مدح الخليفة المنتصر لينال عطاياه .

وكان البحترى من أعظم الوصاف فى الشعر العربى، وشعره يعكس صورة للحضارة والترف فى ذلك العصر، فقد وصف القصور والحدائق والبرك الصناعية

والنافورات وما الى ذلك، وسنرى فى القصيدة التى ندرسها صورة واضحة للبركة التى أنشأها الخليفة المتوكل.

والبحترى رائد مدرسة تجمع بين القديم والجديد وتقف موقفا وسطا تقرأ ما أثر عن العرب، وتقرأ ما ترجم عن اللغات الأجنبية وتمزج بينهما وتطبعه بالطابع العربى مع تلوينه بلون العصر الذى تعيش فيه، وقد حافظت هذه المدرسة على عمود الشعر العربى، ويقصد بعمود الشعر العربى تقاليده المتوارثة من المحافظة على الوزن والقافية، واختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة التى تحقق الجمال الصوتى، وكذلك وضوح المعانى وعدم الابتذال أو التعقيد، والاهتمام بالصور الخيالية مع عدم الاسراف فيها، والاتيان بالمحسنات البديعية حين يتطلبها الموقف لإبراز المعنى بالتضاد أو لتوليد الموسيقى.

* * *

شرح القصيدة

١ – ٦ ـ بدأ الشاعر قصيدته ببكاء الأطلال وطلب من أصحابه أن يتوجهوا الى دار المحبوبة لتحيتها واسترجاع الذكريات الغالية مع حبيبته، وهذا تقليد موروث عن الجاهليين، وقلدهم أيضا فى الحديث عن أثر الرمال التى تسفى التراب على بقايا الدار فتخفيها ثم تعود فتبدد التراب فتظهر معالمها، ثم دعا للدار بالسقيا وهو تقليد جاهلى أيضا، ويدعو لها بالمطر الغامر الذى يتفجر البرق من خلاله، وراح الشاعر يجتر الذكريات مع حبيبته ووصفها بالبخل لأنها لم تنله ما يريد، وحدد يوما لقيها فيه عند كثيب الرمل، وقد مرت أمامه بقوامها الجميل، وكانت قريبة من ناظريه ولكنها بعيدة عنه بهجرها ، وراح الشاعر يعزى نفسه ويستعيد أيام الشباب حيث كان يزور الغانيات فيستميلهن إليه ويستملنه إليهن.

٧ ـ ١٢ ـ ثم انتقل الشاعر الى وصف البركة انتقالا مفاجئا وإن كان قد أجاد فى وصف البركة التى أنشئت فى حديقة الحيوان أمام قصر الخليفة المتوكل، ورسم الشاعر صورة كلية واضحة المعالم فيها الصوت واللون والحركة، وقد صور البركة والفتيات يجلسن حولها فى مقاصيرهن سعيدات بحياتهن الناعمة، وفضل هذه البركة على البحر وجعل البحر تاليا لها فى الرتبة ولتأكيد هذا التفوق جعل نهر دجلة يغار من البركة وينافسها، وفى خلال هذا الوصف والحديث عن تفوقها زج ببيت فى مدح الخليفة المتوكل على عادة الشعراء فى المزج بين المدح والوصف، وكأنه ينكر على دجلة هذه المنافسة مع أن الخليفة يرعاها ويوليها اهتمامه العظيم حتى لا يعلق بها نقص أو عيب، واستمر فى الحديث عن تفوقها حتى إنها تثير الدهشة وتبعث على الظن بأن جن سليمان هم الذين بنوها وأبدعوا فى بنائها، فلو مرت بها بلقيس ملكة سبأ وألقت عليها نظرة عاجلة لحسبتها الصرح الذى بناه النبى سليمان وسخر الجن فى بنائه ودعا بلقيس الى دخوله فكشفت عن ساقيها ظنا منها أنه لجة من الماء.

١٣ ٢٢ ـ ثم ركز الشاعر فى وصفه على معالم البركة ورسم لها صورة كلية

رائعة، جمعت بين الماء والنسيم الذى يداعب المياه، والشمس التى تضاحك هذه المياه والمطر الذى يمدها بقطراته، والنجوم التى تنعكس صورتها فى المياه والسمك الذى يعوم فى البركة، والحوض المبنى فى قاع البركة، وتمثال الدلفين المقام على البركة،وربط الشاعر بين كل هذه المشاهد برباط زاخر بالمشاعر، وأخرج صورة فيها الحياة والألوان البراقة، ويبالغ الشاعر حتى يبلغ بهذه المشاهد القمة، فالمياه تنصب متدفقة كأنها الخيل يرسلها مدربها، وهذه المياه بيضاء كسبائك الفضة، وجعلها تجرى فى مجاريها لتستمر الحركة السريعة فى البركة، ومن الملامح الدقيقة التى صورها البحترى صورة تموجات المياه وتكسرها حين تداعبها النسائم فترسم فى صفحتها طرقا متعرجة متموجة تلمع كأنها الدروع المصقولة، ولكى يبعث الحياة والعاطفة فى صورته جعل حاجب الشمس يغازل المياه فى البركة، وجعل الغيث يذرف دموعه فى البحيرة.

واستمر البحترى فى رسم الصورة الكلية داخل البركة وخارجها، فرأى صورة النجوم تنعكس على صفحة البركة فكأن السماء ركبت فى هذه البركة، وهو تخيل لطيف، ولم ينس صورة السمك الذى يعيش فيها فوصف السمك وضم الى الصورة تمثالا للدلفين كان مقاما على شط البركة، وتبدو الدقة فى وصف زعانف هذه الأسماك وهى تعوم وشبه هذه الزعانف بريشات الطيور التى تلى القوادم فى مقدمة الجناح ونص على الخوا فى لأن صورة الزعانف لا تماثل صورة القوادم، وإمعانا فى الاحاطة بالمنظر وصف صحنا مقاما فى أسفل البحيرة كما وصف سطح البحيرة واتساعه وشبهه بالبهو،وعقد علاقة عاطفية بين السمك وتمثال الدلفين وجعل السمك ينظر اليه معجبا بعينيه، وختم هذا الوصف الرائع مؤكدا عظمة البركة بأن البساتين تغنى بمنظر البركة عن السحائب الهاطلة.

٢٣ ـ ٢٥ ـ واستغرق الشاعر باقى القصيدة فى مدح الخليفة المتوكل، وتدرج فى هذا الانتقال فجمع بين الوصف والمدح فى أبيات ثلاثة، وخصص الأبيات السبعة الأخيرة لمدح الخليفة منشىء البركة، وحين جمع بين الوصف

والمدح شبه سخاءالبركة فى تدفق مياهها بسخاء الخليفة حين يبسط يده للعطاء، وذكر أن هذه البركة تزداد جمالا وزينة حين يذكر اسمها مقرونا باسم الخليفة لأنها كانت تدعى البركة الجعفرية نسبة الى الخليفة جعفر المتوكل، ووصف الرياض التى تحيط بالبركة والتى تزدان بالورود فشبهها بريش الطواويس المعروفة بجمال ريشها.

٢٦ - ٣٢ - وفى مدح الخليفة هنا تحدث عن فرحة الخلافة حين اعتلى المتوكل منبرها ووصف الخليفة أخلاقه ومحاسنه وسخاءه ونسبه الشريف فى قريش، وسعادة الرعية فى ظلاله، وفى ذلك يقول: إن الخلافة نالت أقصى أمانيها حين تولاها الخليفة المعتصم واختالت به، أما هو فقد أبدى تواضعا يليق بمقامه، وذكر أن الدنيا تتصاغر بمحاسنها حين ترى محاسن الخليفة، وكانت الخلافة العباسية تحتل هذه المكانة السامية لأنها تنتسب الى قريش قبيلة النبى عليه السلام ولذلك لم يغفل الشاعر النص على هذا النسب الشريف، وضم الى هذا الشرف سخاءه وسعادة الرعية برعايته لها، وختم القصيدة بأن الله خوله هذه الخلافة لأنه رآه أهلا لها، وأن الخليفة يؤدى حقوق الخلافة ملتزما بشرائع الله.

* * *

نقد القصيدة

١ - ٦ - هذه القصيدة فى مدح الخليفة المتوكل ووصف البركة التى أنشأها فى حديقة الحيوان، ولكن البحترى بدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال وتحيتها وقد أسلفنا أن الوقوف على الأطلال تقليد موروث عن الجاهلية ، وكان الشعراء يحنون الى الماضى العربى ويعيشون فيه بخيالهم، وذكرنا فيما سبق أن ابانواس ثار على هذا التقليد ولكن دعوته لم تنجح إلا فى حدود ضيقة، وإمعانا فى التقليد تحدث الشاعر عن الرياح التى تسفى التراب على الطلل، ووقف يناجى الدمنة ويدعو لها بالسقيا بالمطر الغزير الذى يتفجر البرق من خلاله، وكانوا يدعون بالسقيا لكل شيء حتى لقبر الميت.

ثم تحدث عن الحبيبة البخيلة التى لم تسمع نداءه ولم تستمع لدعائه، والحقيقة أن البخل هنا مدح فى حقيقته وإن كان ذما فى ظاهره، فالحبيبة دائما مطلوبة متمنعة، وهذا دليل الترفع وعامل من عوامل جاذبيتها، ولم ينس الشاعر وصف جمالها وقوامها الى جانب تمنعها وهى قريبة منه، ثم راح يجتر ذكرياته ويذكر أيام الشباب حين كان يزور حبيبته وهو متملك مشاعرها مستميل لها، وكانت تجاوبه وتستميله وتتملك عقله ومشاعره، وإطلاق اسم ليلى على المحبوبة لا يدل على أنه اسمها حقيقة فقد صارت ليلى رمزا لكثير من المحبوبات منذ ذاعت حكاية قيس وليلى فى العصر الأموى.

ونعم هنا لتأكيد تحية الدار لأنه قد يبدو غريبا أن يحيى الانسان دارا مهجورة، والفعل (ميلوا) أسلوب إنشائى أمر للتنبيه والحث، وفى البيت الثانى أسلوب نداء (يادمنة) للتودد والتحسر، وفيه تشخيص للدار فهى استعارة مكنية، والفعلان تنشر وتطوى يصوران شدة الرياح التى تثير التراب فتغطى الدار مرة وتظهرها مرة أخرى، وهنا محسن بديعى طباق لإبراز المعنى بالتضاد، وفى البيت الثالث يدعو للدار بالسقيا ويمعن الشاعر فى تفصيل غزارة الأمطار فيجعلها حللا تغطى الدار ويصفها بأنها حلل ضافية أى طويلة سابغة، ولتأكيد

غزارة الأمطار يذكر أن البرق يتفجر منها ويرسل أضواءه طولا وعرضا، ويصدر البيت بقوله: (لازلت) ليفيد تمنى دوام المطر الغزير.

وينتقل الشاعر الى الحديث عن محبوبته وذكرياته معها ويصفها بالبخل ويؤكد ذلك (بإن) ثم يعطف الفعل (لم تسمع) على (لم تنعم) ليؤكد عدم نيل عطائها، والفعل (تأود) مضارع لاستحضار الصورة، ويكشف عن جمال قوامها، ويأتى بمحسن بديعى (فى قرب وفى بعد) وهو طباق لإبراز وضوح جمالها فى قربها وفى بعدها، وأتى بطباق آخر (يبعدها ويدنيها) ويبرز قرب دارها ومع ذلك لا ينال منها شيئا، وفى شىء من التعويض النفسى عن الحرمان يذكر أيام شبابه وزيارته للحسناوات مقتدرا على ذلك مصبيا لهن، وأتى بالفعل (أطرق) ويكون ليلا، لأن الليل فرصة العاشقين، والفعلان (تصبينى وأصبيها) يفيدان قوة العاطفة بينهما وتمكن كل منهما من قلب الآخر.

٧ - ١٢ - وانتقل الشاعر الى وصف البركة انتقالا مفاجئا ولم يحسن التمهيد لهذا الانتقال، وفى هذه الأبيات الستة ركز على وصف عظمتها وتفوقها على غيرها، وأخر تفصيل مظاهر الجمال الى الأبيات التالية، والى جانب وصف البركة بالحسن .

أضاف صورة الفتيات الجالسات فى المقاصير شاعرات بالسعادة، وأسلوب النداء (يامن رأى) يراد به التشويق لرؤية البركة ، ويلجأ البحترى الى المبالغة فيجعل البركة فى المرتبة الأولى والبحر تاليا لها، ثم يجعل دجلة تغار منها، وأكد تفوقها على البحر بأداة التوكيد (أن)، ثم أتى بأسلوب استفهام للتعجب (ما بال دجلة تنافسها؟(ومهد بهذا التعجب لمدح الخليفة وكأنه يقول: كيفَ تباهيها دجلة والخليفة يكلؤها؟

وقد بعث البحترى المشاعر فى دجلة وفى البركة، والفعل المضارع (يكلؤها) لاستحضار الصورة والاستمرار.

واستمر الشاعر فى تصوير عظمة البركة الى حد يفوق الخيال، وهنا تظهر

معلوماته التاريخية والدينية فيذكر الجن الذين سخرهم سليمان في بناء الصرح العظيم، ويظن من رأى البركة أن جن سليمان هم الذين أبدعوها، ويأتى بلفظى (إبداع وأدقوا) دليل التفوق، ومعلوم أن الجن لهم قدرة عظيمة، ولتأكيد هذا المعنى يذكر بلقيس التى وردت قصتها فى القرآن الكريم، وإنها رأت صرح سليمان فحسبته ماءوكشفت عن ساقيها، وهنا تشبيه ضمنى، شبه البركة بقصر النبى سليمان الذى بناه الجن، ولأن البركة تخالف القصر فى الشكل احتاط فقال (عن عرض) أى من جانب أو على غرة، حتى يمكن هذا الحسبان الذى تحسبه بلقيس.

١٣ - ٢٢ - ويبدأ الشاعر وصفا دقيقا مفصلا للبركة، وقدرسم لها صورة واضحة جميلة وبعث فيها حياة وحركة وعاطفة، وبدأ برسم صورة للمياه المتدفقة فى البركة وشبه هذه المياه المتدفقة فى البركة بالخيل الخارجة من حبل مدربها، وأتى بألفاظ معبرة كما فى قوله: (تنصب) وهنا فعل مضارع لاستحضار الصورة ويوحى بالغزارة والتدفق ،وكذلك (وفود، ومعجلة) والتشبيه بالخيل يوحى بالقوة، أما الماء فى البركة فقد شبهه بالفضة السائلة، وهنا يعطى الصفاء والقيمة الغالية، وأكد استمرار السرعة والغزارة بقوله: تجرى فى مجاريها، وتظهر النظرة الدقيقة الفاحصة فى تصوير التموجات التى تعلو صفحة المياه حين تمر النسائم، ولم ينس تصوير اللمعان والبريق فشبهها بالدروع المصقولة وهى صورة دقيقة رائعة.

وبعد أن رسم صورة واضحة للمياه أضاف الى الصورة الشمس والمطر والنجوم وعقد صلة عاطفية بين البركة والشمس والمطر فجعل الشمس تغازلها حين تشرق ويظهر حاجبها، غير أن الشاعر لم يوفق حين جعل المطر يباكيها، والبكاء نتيجة عاطفة حزينة مع أن الجو كله جمال وحب، وربما أراد الشاعر أن يأتى بطباق بين يضاحكها ويباكيها فلم يوفق، أما النجوم فرسم لها صورة مدهشة، فحين تظهر صورة النجوم على صفحة الماء يحسب الرائى أن السماء ركبت على سطح البركة، وهنا تشبيه تمثيلى شبه النجوم على صفحة الماء

بالنجوم على صفحة السماء، ثم عاد الشاعر الى البركة واصفا السمك الذى يعوم فيها وخصص له أربعة أبيات ورسم صورة دقيقة لا تنقصها العاطفة فالسمك يعوم فى البركة ولا يبلغ غايتها وهنا اتساع البركة وعظمتها وأتى بمحسن بديعى هو الطباق بين قاصيها ودانيها وأبدع الشاعر فى وصف حركة الزعانف فى الماء وصور السمك باسطا زعانفه وهو يعوم وشبه الزعانف بريشات الطيور الصغيرة التى تلى قوادم الطائر، وهنا تصوير للشكل والحركة ، وهى استعارة تمثيلية شبه السمك يعوم فى الماء ويبسط زعانفه بالطير تنقض فى الهواء وتبسط أجنحتها ولم يترك الشاعر صورة الحوض الذى أقيم فى أسفل البركة وقابله بالبهو الواسع ويقصد به أعلى البركة، ونرى الطباق بين أسافلها وأعاليها، وبقيت صورة واحدة لاستكمال الصورة الكلية وهى صورة تمثال الدلفين الذى أقيم على هذه البركة فصّوره وعقد صلة عاطفية بين السمك والدلفين وجعل السمك ينظر الى الدلفين مؤتنسا به معجبا بعينيه الضيقتين، واهتم بالرنين الموسيقى فأورد الجناس بين صور وصورة والجناس تشابه الحروف فى الكلمتين مع اختلاف المعنى، وختم هذه الصورة بالحديث عن قيمتها فى الرى فذكر أن البساتين تغنى بها عن السحائب الممطرة .

٢٣ ـ ٢٥ ـ وقد أحسن الشاعر هنا الانتقال الى مدح الخليفة فأورد ثلاثة أبيات تجمع بين الوصف والمدح فشبه تدفق الماء فى البركة بتدفق العطاء من يد الخليفة، وأورد لفظين موحيين بالغرض فذكر التدفق فى الماء، وذكر سال فى العطاء، وكانت البركة تدعى بركة الخليفة المتوكل فجعل انتسابها اليه زينة لها يزيدها جمالا فوق جمالها، وقبل أن يترك الوصف أضاف صورة الرياض التى تحيط بالبركة وتزينها الورود والأزاهير وشبهها بريش الطواويس المزدانة بالألوان الجميلة الزاهية .

٢٦ ـ ٣٢ ـ وتفرغ الشاعر لمدح الخليفة المتوكل وبدأ بتشخيص الخلافة وبعث فيها العاطفة والأمانى وجعلها تنال أقصى أمانيها بتولى الخليفة المتوكل، وأكد ذلك بأداة التوكيد (إن) وأتى بالفعل الماضى (أعطيت) لتوكيد الحدوث،

وأتى باسم التفضيل (أقصى) ليقول : إنها أعظم أمنية تمنتها الخلافة، ثم وصف الخليفة بصفات عديدة هى التواضع والورع والبهاء والروعة والشرف الرفيع والإحسان والسخاء، وحين وصفه بالتواضع والورع أثبت له التواضع بعد نيله الخلافة لأنها منصب قد يبعث على التعالى ، وأتى بطباق جميل فهو يتواضع والخلافة تتيه به وتختال، وحين وصفه بالبهاءجعل الدنيا فى حليتها تستصغر نفسها حين ترى بهاء الخليفة، وأتى بطباق بين محاسنها ومساويها لإبراز المعنى بالتضاد، وحين تحدث عن أصله وكرم منبته نسبه الى قريش فى مكة المكرمة، ومعروف أن قبيلة قريش أشرف القبائل ومنها النبى ﷺ، وأتى الشاعر بأسلوب النداء (يابن الأباطح) وهو نداء للتعظيم، وذكر أنه فى ذروة المجد وأتى باسم التفضيل (أعلى) وذكر أنه أعلى من جميع القمم، ثم وصفه بالاحسان، والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا منتهى التقوى، وعطف (حضر على بدو) للشمول، ورعية نكرة فى سياق النفى (ما ضيع) تفيد الشمول أيضا، وهنا طباق بين بدو وحضر، واهتم بوصف الخليفة بالسخاء وهو من أهم الصفات اللازمة للخليفة، وأتى بالفعل (بثثت) وهو فعل ماض لتأكيد الحدوث ويوحى بالكثرة والانتشار، وأتى بالمفعول المطلق (نوهت تنويها) لتأكيد إظهار الجود، وختم القصيدة بأن المتوكل أحق الناس بالخلافة وأن الله هو الذى منحه هذه الخلافة، وأن الخليفة يعطى حق الله ويقوم بواجبات الخلافة ، فأثبت له الفضل المطلق، وأثبت له رضا الله، وحب الرعية له وطاعتها .

خصائص أسلوب البحترى :

البحترى إمام مدرسة تجمع بين القديم والجديد ، وهو يحافظ على التقاليد العربية ويقرأ الجديد ويتأمله ويطبعه بالطابع العربى ويلونه بلون عصره، وهو شاعر مثقف ولكنه لم يكثر من الإشارات العلمية أو التاريخية، ويهتم بوضوح المعنى مع عدم الابتذال أو التعقيد، ويحافظ البحترى على عمود الشعر العربى من الوزن والقافية واختيار الألفاظ الفصيحة المناسبة التى تحقق الجمال الصوتى، ويهتم بالصور الخيالية مع عدم الإسراف فيها أو التعقيد فى تركيبها ويأتى بالمحسنات البديعية حين يتطلبها الموقف لإبراز المعنى بالتضاد أو لتوليد الموسيقى .

ابن الرومى يرثى ابنه

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى
فجودا فقد أودى نظيركما عندى

بنّى الذى أهدته كفاى للثرى
فياعزة المهدَى ويا حسرة المهدِى

ألا قاتل الله المنايا ورميها
من القوم حبات القلوب على عمد

توخى حمام الموت أوسط صبيتى
فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره
بعيدا على قرب قريبا على بعد

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
واخلفت الآمال ما كان من وعد

لقد قل بين المهد واللحد لبثه
فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

ألح عليه الترف حتى أحاله
الى صفرة الجادىّ عن حمرة الورد

وظل على الأيدى تساقط نفسه
ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

فيالك من نفس تساقط أنفسا
تساقط در من نظام بلا عقد

عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له
ولو أنه أقسى من الحجر الصلد؟

بودى أنى كنت قدمت قبله
وأن المنايا دونه صمدت صمدى

ولكن ربى شاء قبل مشيئتى
وللرب إمضاء المشيئة لا العبد

وما سرنى أن بعته بثوابه
ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

ولا بعته طوعا ولكن غصبته
وليس على ظلم الحوادث من معدى

وإنى وإن متعت بابنى بعده
لذاكره ما حنت النيب فى نجد

وأولادنا مثل الجوارح أيها
فقدناه كان الفاجع البين الفقد

لكل مكان لا يسد اختلاله
مكان أخيه فى جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفى مكانه؟
أو السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

لعمرى لقد حالت بى الحال بعده
فياليت شعرى كيف حالت به بعدى؟

ثكلت سروری كله إذ ثكلته … وأصبحت فی لذات عيش أخازهد

أريحانة العينين والأنف والحشا … ألا ليت شعری هل تغيرت عن عهدی؟

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به … وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدی

أعينیّ إن لا تسعدانی ألكما … وإن تسعدانی اليوم تستوجبا حمدی

أقرة عينی قد أطلت بكاءها … وغادرتها أقذی من الأعين الرمد

أقرة عينی لو فدی الحی ميتا … فديتك بالحوباء أول من يفدی

كأنی ما استمتعت منك بنظرة … ولا قبلة أحلی مذاقا من الشهد

كأنی ما استمتعت منك بضمة … ولا شمة فی ملعب لك أو مهد

ألام لما أبدی عليك من الأسی … وإنی لأخفی منه أضعاف ما أبدی

محمد ما شیء توهم سلوة … لقلبی إلا زاد قلبی من الوجد

أری أخويك الباقين فإنما … يكونان للأحزان أوری من الزند

إذا لعبا فی ملعب لك لذّعا … فؤادی بمثل النار عن غير ما قصد

فما فيهما لی سلوة بل حزازة … يهيجانها دونی وأشقی بها وحدی

وأنت وإن أفردت فی دار وحشة … فإنی بدار الأنس فی وحشة الفرد

أود إذا ما الموت أو فد معشرا … إلی عسكر الأموات أنی من الوفد

ومن كان يستهدی حبيبا هدية … فطيف خيال منك فی النوم استهدی

* * *

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى، ينتسب أبوه الى الروم، أما أمه فمن أصل فارسى، ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد، ولا نعرف تفاصيل حياته الأولى، وتوسم أبوه فيه الذكاء وهو صغير، وفقد ابن الرومى أباه قبل أن يبلغ الرجولة، وتردد ابن الرومى على مؤدبى عصره، ونشأ عالما باللغة والتاريخ وكان يعرف بعض المفردات اليونانية والفارسية ويوردها في شعره.

ونبغ ابن الرومى فى الشعر حتى صار واحدا من أعظم شعراء العربية، وامتاز بطول القصائد وعمق الخيال وروعة التصوير، وكان بارعا فى تصوير الشكل الخارجى، كما كان بارعا فى تجسيم المعنويات وإبرازها أمام أعيننا، وبرع فى الهجاء وتجسيم العيوب الجسمية والنفسية، كما برع فى المدح وفى وصف الطبيعة، واقتبس من الطبيعة فى كل أغراض الشعر وامتزج بها وأحبها بجميع جوارحه وأحاسيسه.

وعرف ابن الرومى البحترى وعاشا فى زمان واحد، وكان ابن الرومى متشائما الى أبعد الحدود، وربما مكث فى بيته أياما لا يغادره إذا رأى منظرا لا يعجبه، أو سمع اسما يتطير منه، وكان ضعيف البنية ولكنه كان منهوما يقبل على الطعام بشراهة، وتزوج ابن الرومى ورزق ثلاثة أولاد ذكور، ومات أوسطهم فرثاه ابن الرومى بقصيدة تعد أروع قصائد الرثاء فى الشعر العربى، وسندرسها هذا العام، ومات ابن الرومى سنة ٢٨٣ ـ أو ـ ٢٨٤، وقيل إنه مات مسموما بسبب هجائه بعض الكبراء.

شرح قصيدة ابن الرومى :

هذه القصيدة فى الرثاء قالها ابن الرومى فى رثاء ابنه الأوسط حين اختطفه الموت، وأرى أن هذه القصيدة أصدق قصائد الرثاء فى الشعر العربى، وأرى أيضا أن شعر الرثاء فى مجمله حافل بالمبالغات والمجاملات، والحزن الشديد يشتت الفكر ويعقد اللسان فلا يستطيع الشاعر أن يعبر عن مشاعره الدفينة فى صدق

وبراعة، فيلجأ الشاعر الى المبالغات السخيفة ويتعجب كيف لم تنطبق السماء على الأرض؟، وكيف عاودت الشمس طلوعها؟، أو يدعى أنهم شيعوا الشمس ودفنوا القمر، أما ابن الرومى فقد عبر عن إحساس صادق خال من المبالغة، وأقنعنا بادعاءاته إقناعا ممزوجا بالعاطفة.

وتبدأ القصيدة ببيت غاية فى الصدق والروعة:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى   فجودا فقد أودى نظير كما عندى

يخاطب الشاعر عينيه طالبا منهما أن يجودا بالدموع، ومن المعروف علميا وشعبيا أن البكاءيخفف آلام الحزين، ومن المعروف أيضا أن البكاء لا يعيد ما فات ولا يرد الميت، ويلح ابن الرومى على عينيه فى طلب الدموع فيقول مخاطبا إياهما: فجودا فقد أودى نظير كما عندى، ولو خيرت إنسانا بين ابنه وعينه لوقف حائرا، أيهما يختار؟ لأنهما فى منزلة واحدة، فالبيت كله غاية فى الصدق الفنى والواقعى ، أما أنه يطلب من عينيه سفح الدموع فلأن الحزن قد يصيب العين بالجمود ولا تسيل دموعها، والدموع تريح الإنسان ثم يقول:

بنى الذى أهدته كفاى للثرى   فياعزة المهدى ويا حسر المهدى

ألا قاتل الله المنايا ورميها   من القوم حبات القلوب على عمد

ثم يبرز الشاعر الفاجعة ويصورها وقد حمل الشاعر ابنه بين يديه وقدمه هدية الى التراب وعاد صفر اليدين منه، وهذا أقسى المواقف واللحظات، ويصرخ الشاعر متحسرا ولا يجد حيلة إلا أن يدعو على المنايا لأنها ترمى أبناءنا وحبات قلوبنا متعمدة حرماننا أعز ما نملك.

ويتحدث عن ابنه الذى اختطفه الموت فيقول:

توخى حمام الموت أوسط صبيتى   فلله كيف اختار واسطة العقد؟

على حين شمت الخير من لمحاته   وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره   بعيدا على قرب قريبا على بعد

لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها   وأخلفت الآمال ما كان من وعد

لقد قل بين المهد واللحد لبثه   فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

يقول : إن الموت قصد أوسط أبنائى، ويتعجب كيف اختار أوسطهم؟ وعبر عنه بواسطة العقد، وواسطة العقد هى الجوهرة الكبرى التى تكون فى وسط العقد وتكون أثمن الجواهر، وطبيعى أن يحس الأب بأن الابن الذى فقده أحبهم إليه لأنه الفقيد الذى غربت شمسه، ويظهر هنا أن الابن الفقيد قد شب وظهرت ملامح ذكائه ورشده، وجاوز مرحلة الطفولة الأولى، ويتحدث عن طى الردى له فكأنه كان شيئا جميلا يسعد لمرآه طواه الموت وأخفاه عنه، ويأتى بطباق رائع فهو بعيد عن عينه ولكنه قريب منه فى قلبه، وهو ساكن فى قلبه ولكنه بعيد عنه لا يراه، ثم ينظر نظرة إنسانية ويرى الموت ينذر جميع الناس بطيهم، ولكن الآمال تزين للناس حياتهم، وقد أنجز الموت وعيده، وأخلفت الآمال وعدها بأن يكبر الولد ويصير سنداً لأبيه، ويحس الأب بأن الابن لم يمكث فى الحياة إلا قليلا قبل أن يدرج فى الكفن، ومن المعروف أن لحظات السعادة تمر سريعا، وأن الثاكل يحس بأن الفقيد لم يلبث بجانبه إلا قليلا.

وفى براعة فائقة وصف ابن الرومى كيف مات ابنه، وكان قد مات من النزف واستطاع الشاعر أن يصور اللحظات التى تسلل فيها الموت الى ابنه، ووصف الألوان وخروج الروح والتحول البطىء من الحياة الى الموت حيث يقول :

ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادىّ عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند
فيالك من نفس تساقط أنفسا ... تساقط در من نظام بلا عقد

فقد ظل الغلام ينزف دمه قطرة فقطرة وهو يتحول من اللون الأحمر الى الصفرة الباهتة، والجادى الزعفران، أما الورد فمعروف، وهنا تصوير قدير على تحول اللون من الحيوية الى الذبول، وظلت نفسه تتساقط لأن كل قطرة دم جزء من حياته، وأتى بتشبيه رائع حيث شبه تساقط قطرات الدم بتساقط الدر من سلك وإن كان غير مكتمل كالعقد، ولم يغفل ابن الرومى تصوير الأب والأم يحملان الطفل على أيديهم والموت يسرى فى أعماقه ليبرز مدى الحسرة التى يعانيها الوالدان وهما عاجزان عن أن يفعلا شيئا، وكما شبه اللونين فى حالة

الحمرة والصفرة شبه الحيوية والذبول، فشبهه بقضيب من الرند وهو يذوى شيئا فشيئا، والرند نبات طيب الرائحة، وكلنا يتخيل النبات وهو يذوى حتى يصير هشيما خاليا من النضرة والحيوية.

ثم ينتقل الشاعر الى وصف حالته وهو يرى ابنه يخطو الى الموت حيث يقول:

عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد؟
بودى أنى كنت قدمت قبله ... وأن المنايا دونه صمدت صمدى
ولكن ربى شاء قبل مشيئتى ... وللرب إمضاء المشيئة لا العبد

يتعجب الشاعر كيف لم ينشق قلبه لشدة الأسى وإن كان قلبه قوى التحمل كالحجر الصلد ولكنه يحس بالموقف الأليم الذى تتشقق له الحجارة، ثم يتمنى الشاعر صادقا أنه مات قبل ابنه وأن الموت قصد اليه وتخلى عن ابنه، ولكنها أمنية لا يستطيع تحقيقها فالله وحده هو الذى يقدر وينفذ، ويأتى هنا بحكمة صادقة (وللرب إمضاء المشيئة لا العبد).

ومن التعبيرات الصريحة الصادقة قوله:

وما سرنى أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معدى

والصراحة الصادقة هنا إعلانه أنه لا يسره أن يبيع ابنه بثواب الله وإن كان الثواب جنة الخلد، ولا صراحة أصدق من هذا، فالصبر على الفقيد جزاؤه الجنة والجنة أمنية كل إنسان، ولكنك لو خيرت شخصا فى أن يموت ابنه وينال الجنة لما رضى إلا فى مواقف الوطنية الجارفة عند صادقى الإيمان، ويؤكد موقفه بأن ابنه اغتصبه الموت اغتصابا، ولا معين على حوادث الدهر.

ومن الصدق الواقعى والفنى حديثه عن ابنيه الباقيين حيث يقول:

وإنى وإن متعت بابنىَّ بعده ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد

وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد

لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفى مكانه؟ ... أو السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

قد يقول قائل: أليست لك متعة فى ابنيك الباقيين؟ ألا يغنيانك عن ابنك الراحل؟ ويجيب ابن الرومى: أن فى ابنيه الباقيين متعة له، ولكنهما لا يغنيان عن الابن الراحل، وهذا حق، فهو يذكره ويحن إليه كما تحن الناقة الى ولدها، ويلجأ ابن الرومى الى الاقناع ولكنه ليس إقناعاً جافاً، ولكنه إقناع عاطفى مستقى من الواقع الملموس، وهنا يشبه الأولاد بالجوارح إذا فقد الإنسان جارحة لا يسد مكانها جارحة أخرى، وهذا حق، ثم يخص حديثه بالسمع والعين لا يسد أحدهما مسد الآخر، وهنا لا يبقى شك فى أن أبنيه الباقين لا يسدان مسد ابنه الفقيد.

ويربط ابن الرومى بينه وبين ابنه فيقول:

لعمرى لقد حالت بى الحال بعده ... فياليت شعرى كيف حالت به بعدى؟

ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخازهد

أريحانة العينين والأنف والحشا ... الا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى؟

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى

أعينى إلا تسعدانى ألمكما ... وإن تسعدانى اليوم تستوجبا حمدى

يقسم الشاعر ويتمنى، يقسم على أنه تغير كلية بعد موت ابنه، ويتمنى أن يعلم كيف أصبح ابنه الآن بعد بعده عن أبيه؟ فهو مازال يفكر فى ابنه ويحمل همه، ويريد أن يطمئن على أحواله، ثم يؤكد أنه فقد سروره كله وأصبح زاهدا فى لذات الحياة لا يغريه بريق المتع الدنيوية، ثم يخاطب ابنه بقوله: أريحانة العينين والأنف والحشا، فهو متعة لعينه ولأنفه يراه ويشمه ويستمتع به، وقد وصف ابن الرومى الطبيعة فى إحدى قصائده بقوله:

ريحها ريح طيب الأولاد

ريحها ريح طيب الأولاد

وهوكذلك يستمتع بابنه فى أعماقه حينما كان يتحرك أمامه، ويعلن أنه سيبكية ما جادت عيناه بالدموع وإن كان يعلم أن الدموع لا تجدى ولكنه يستجدى عينيه أن تسعداه بالدموع وإلا فإنهما يستحقان لومه.

ثم يتوجه إلى ابنه مخاطبا إياه شارحا حاله وآلامه:

أقرة عينى قد أطلت بكاءها	وغادرتها أقذى من الأعين الرمد
أقرة عينى لوفدى الحى ميتا	فديتك بالحوباء أول من يفدى
كأنى ما استمتعت منك بنظرة	ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد
كأنى ما استمتعت منك بضمة	ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى	وإنى لأخفى منه أضعاف ما أبدى

ينادى الشاعر ابنه آملا أن يصل صوته إليه لأنه قرة عينه أى إنه يسعد عينه ويجعلها تقر وتستريح، ولكنه الآن قد أطال بكاء عينه حتى صارت كالعين المصابة بالرمد المملوءة بالقذى، ويعلن أنه لو أمكن الفداء لكان أول من يفدى ابنه بنفسه، ويكشف عن تلهفه على ابنه وإحساسه بلوعة الحرمان كأنه ما استمتع منه بنظرة ولا قبلة ولا ضمة ولا شمة، ويرفض اللوم الموجه إليه لشدة ما يظهره من الأسى، ويعلن أنه يخفى فى أعماقه أضعاف ما يبدى، والحقيقة أن هذا اللوم ليس لوما بالمعنى المفهوم ولكنه محاولة من الأصدقاء لتسكين نفسه والتخفيف من أحزانه.

وقد سبق أن أكد ابن الرومى أن ابنيه الباقيين لا يسدان مسد ابنه الفقيد، وهنا يؤكد أن الأمر لا يتوقف عند هذا، بل إنهما يهيجان أحزان الأب ويشعلان النار فى قلبه حين يراهما ولا يراه. يقول:

محمد ما شيء توهم سلوة	لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين فإنما	يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعــبــا فى ملعب لك لذعــا فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
فـمـا فـيـهـمـا لى سلوة بل حـزازة يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

الناس يتوهمون أن روية الولدين الباقيين سلوة لأبيهما، ولكنهما فى الحقيقة يزيدان وجده كما يقول، فهما يشعلان النار فى قلبه كما يشعل الزند النار، والزند العود الذى يقدح به النار، بل هما أشد إشعالا للنار فى قلبه، وعلل لذلك بأنهما حين يلعبان فى ملعب منفردين يذكرانه بابنه الذى اختطفه الموت، فهما يسببان له الحزن والألم عن غير ما قصد، فهما يهيجان أحزانه ويتركانه يشقى بهذه الأحزان وحده.

وفى آخر القصدة يعبر عن شعوره بالوحدة والوحشة ورغبته فى أن يساق الى الموت كلما رأى الموتى الراحلين الى الدار الآخرة فيقول:

وأنت وإن أفــردت فى دار وحــشــة فـإنى بدار الأنس فى وحشة الفرد
أود إذا مــا الموت أوفـــد مــعــشــرا إلى عسكر الأموات أنى من الوفد
ومن كـان يستهدى حـبـيـبـا هدية فطيف خيال منك فى النوم أستهدى

ويختم القصيدة بأن يطلب من ابنه الحبيب هدية غالية هى طيف خيال يلم به فى منامه لعله يسكن لواعجه ويخفف آلامه.

نقد القصيدة :

يقسم النقاد شعر الرثاء ثلاثة أقسام: ندب وتأبين وعزاء، أما الندب فالبكاء على الميت، أما التأبين فالإشادة بالميت وإظهار مآثره، أما العزاء فالخروج إلى أفق إنسانى رحب والتأمل فى الحياة وفى الموت وفى أسرار الكون. وليس هناك حد فاصل بين الثلاثة، بين ملامح كل لون، ولكنا نضع القصيدة فى قسم من الأقسام الثلاثة بحسب السمة الغالبة عليها، وقصيدة ابن الرومى هذه تجمع بين الندب والعزاء لأنه يبكى ويتفجع، ثم إنه يتأمل فى الحياة والموت والبكاء وأثره وإهداء الأحباب الى التراب وتحول الإنسان بعد الموت، وتحول الثاكل الى الوحدة والزهد

لشدة الحزن، الى آخر هذه المعانى التى تمس أعماق الإنسانية وتصور مشاعرها، أما التأبين فلا نراه إلا فى إشارة عاجلة كما فى قوله :

على حين شمت الخير من لمحاته   وآنست من أفعاله آية الرشد

لأن الفقيد مازال طفلا لم تظهر دلائل تفوقه.

فى مطلع القصدة يشخص الشاعر عينيه ويخاطبهما وكأنه يمنى نفسه بأن يسمعا خطابه ويعيناه بالدموع، والفعل جودا أمر للرجاء والاستعطاف، وفى الشطر الأول مقابلة لأن البكاء يشفى النفس وإن كان لا ينفع فى إعادة ما ذهب، وأكد مكانة ابنه الفقيد وأنه نظير عينيه، وقد الداخلة على الفعل الماضى تفيد التأكيد، وفى البيت الثانى ذكر ابنه مصغرا (بنى) لبيان أنه مازال صغيرا لم يتمتع بالحياة، وأهدته توحى بقيمة ما قدمه للتراب لأن الهدية تكون شيئا ثمينا، ألا للتنبيه على شىء مهم، قاتل أسلوب خبرى لفظا إنشائى معنى، والمراد الدعاء على المنايا بأن يقاتلها الله، وعلل لهذا الدعاء بأنها ترمى حبات القلوب عمدا، وهنا تشخيص للمنايا وكأنها جيوش الأعداء.

وفى البيت الرابع أسلوب تعجب، وفيه استعارة تمثيلية حيث شبه ابنه محمدا أوسط إخوته بحبة الجوهر العظمى بين سائر الحبات، ويأتى الشاعر بالمحسنات البديعية بعيدا عن التكلف مثل المقابلة فى قوله: بعيدا على قرب قريبا على بعد، وفى البيت السابع مقابلة بين الشطرين: أنجزت تقابل أخلفت، والمنايا تقابل الآمال، والوعيد يقابل الوعد، وتأتى هذه المقابلة كاشفة مدى الفاجعة والفرق بين الواقع وما كان متوقعا، وأكد بقد وبالفعل الماضى أنجز وأخلف.

والشاعر قدير على اختيار الألفاظ الموحية كما فى قوله: ألح عليه النزف، والفعل يوحى باستمرار النزف والإلحاح يكون فى شىء بغيض، وحتى تفيد الغاية، وكذلك الفعل ظل يفيد الاستمرار، ومن مظاهر القدرة على تصوير الألوان والحالات قوله: أحاله الى صفرة الجادى عن حمرة الورد، وفيها اللون الأحمر الذى يصور حالة الصحة والحيوية، واللون الأصفر الذى يصور الذبول

والضعف، وكذلك قوله: ويذوى كما يذوى القضيب من الرند، ويصور التحول التدريجى وهو تحول ملحوظ أمامنا وإن كنا لا ندرك مراحل التحول بوضوح، ولكنها صورة مستقرة فى أذهاننا وأخيلتنا، والصور البلاغية كثيرة ومنها تشبيه ابنه فى حالتيه بالورد والجادى، وتشبيهه بالقضيب من الرند، ولا ننسى أن ابن الرومى عاشق للطبيعة يستمد منها صوره وهنا الجادى والورد والرند.

ومن الأساليب الإنشائية قوله: فيالك من نفس تساقط أنفسا، وهو أسلوب تعجب بيا، ومن المعانى الدقيقة أنه جعل نفس الطفل تتساقط مع قطرات الدم، وشبه قطرات الدم بالدر لبيان قيمتها فهى سر الحياة، ووجه الشبه دقيق فقطرات الدم تشبه الدر فى الحجم وفى التساوى وفى النفاسة، وجعل الدر فى سلك ونفى أن يكون عقدا لأن العقد مربوط يحول دون سقوط حبات الدر.

وفى البيت الثالث عشر يقول: بودي أنى كنت قدمت قبله، والفعل قدمت مبنى للمجهول لأن الإنسان يقدم للموت رغم إرادته، ثم يأتى بأداة الاستدراك لكن وتفيد أن ما بعدها مخالف لما قبلها، ويأتى بحكمة صادقة (ولله إمضاء المشيئة لا العبد) وهو أسلوب قصر أداته التقديم حيث قدم الخبر والمبتدأ معرفة فأفاد قصر إمضاء المشيئة على الرب، وتعجبنى صراحته فى قوله: (وما سرنى أن بعته بثوابه) ولا نتهم ابن الرومى بضعف الإيمان، وإنما هى الحقيقة الكامنة فى نفس الإنسان يؤمن بالثواب والعقاب ولكنه يجبن عند التنفيذ.

وفى البيت الرابع عشر نرى جملة اعتراضية هى: (وإن متعت بابنى بعده) لدفع إيهام أنه يذكر ابنه ولا يتمتع بابنيه الباقيين، أما حنين الناقة فى نجد فهو تقليد موروث ومن المعروف أن الناقة تحن الى ولدها حنينا شديدا.

ولايقتصر ابن الرومى على التأثير العاطفى وإنما يلجأ أيضا الى المنطق والاقناع العقلى ولكنه ليس إقناعا جافا، وهنا يشبه الأولاد بالجوارح، ومعلوم أن الجوارح كالعين والأذن عزيزة على الإنسان فتشبيه الأولاد بها يبرز مدى إعزازنا لهم وحزننا لفقدهم، وقد يقول قائل: إن الابن الباقى يسد مسد الذاهب، فنفى ابن الرومى ذلك وأكد رأيه بأن العين لا تغنى عن الأذن، والأذن لا تغنى عن العين، وأتى بأسلوب الاستفهام وهو يفيد النفى.

وفى البيت الحادى والعشرين يأتى بثلاثة أساليب إنشائية: الأول لعمرى لقد حالت.. وهو أسلوب قسم لتأكيد تحول حاله، ويأتى بأداة التوكيد قد، وبالفعل الماضى حالت، والأسلوب الثانى (ليست شعرى) وهو أسلوب تمن للتحسر، والأسلوب الثالث (كيف حالت به بعدى) وهو أسلوب استفهام، والثكل الفقد فقوله: (ثكلت سرورى) يصور السرور وقد مات وانتهى، ويؤكد ذلك بقوله (كله)، ويذكر أنه زهد فى جميع لذات الحياة.

وينادى الشاعر ابنه بقوله: أريحانة العينين والأنف والحشا، وهنا تفصيل دقيق لمشاعره، فهو يسعد عينيه حين ينظر اليه، ويسعد أنفه حين يشمه، ويسعد نفسه وهو يحتضنه، وقد عبر ابن الرومى عن سعادته جين يشم ابنه حين قال فى وصف الطبيعة : (ريحها ريح طيب الأولاد).

وأسلوب النداء هنا للتودد، وفى الشطر الثانى أسلوبان إنشائيان، ليت للتمنى والتحسر، وهل أداة استفهام يوحى بالحيرة والتحسر أيضا، ويعلن ابن الرومى أنه سيواصل البكاء ما وجد دموعا، والسين للتأكيد.

ثم ينادى ابنه فى بيتين متتاليين، وفى النداء تودد وحسرة، ولو حرف امتناع لامتناع تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، فقد امتنع من فداء ابنه بنفسه لامتناع أن يفدى حى ميتا، وفى إظهار تحسره يجمع بين النظرة والقبلة، ويجمع بين الضمة والشمة لأنه ينظر الى ابنه فيعجب به ويقبله، وحين يضمه يشم رائحته ويسعد بها، وفى البيت الثلاثين مقابلة بين الشطرين لما يظهر وما يخفى.

وفى البيت الحادى والثلاثين أسلوب نداء للتودد، وشىء نكرة فى سياق النفى تفيد التعميم، والفعل أرى لاستحضار الصورة، وقوله: (فإنما يكونان للأحزان أورى من الزند) أسلوب قصر أداته إنما لقصر أثر الرؤية على إثارة الأحزان، وأورى اسم تفضيل لبيان شدة إثارة الأحزان فى قلبه، والفعل لذع مضعف والتضعيف يفيد الكثرة، وتشبيه الأحزان بالنار لإبراز المعنى فى صورة محسوسة تجسم الآلام، واحترس الشاعر بقوله (عن غير ما قصد) لنفى تعمد إثارة الأحزان، ومن المؤلم أن يثير الولدان الأحزان ويشقى بها الأب وحده.

وحين يعبر عن وحشته يذكر أنه بدار الأنس فى وحشة الفرد، ووضع الأنس بجانب الوحشة يبرز الغرابة وقسوة الأحداث، وفى قوله: الموت أوفد معشرا تجسيم وتشخيص للموت، وفى نهاية القصيدة يعلن أن غاية مناه أن يرى طيف ابنه فى المنام.

وهذه القصيدة لابن الرومى من الشعر الوجدانى الذى يعبر عن الأحاسيس العميقة ويجمع بين التأثير العاطفى والإقناع العقلى، وتتمتع هذه القصيدة بوحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى، فالموضوع واحد هو رثاء ابنه الحبيب، والجو النفسى المسيطر على القصيدة جو الحزن والكآبة والشعور بالوحشة وتمنى الموت للخلاص من هذه الحياة المؤلمة وتبدو فى القصيدة سمات شعر ابن الرومى من التشخيص والتجسيم والتحليل وتقليب المعنى على وجوهه والاقتباس من الطبيعة.

* * *

المتنبى يعاتب سيف الدولة الحمدانى ويمدحه

١ - واحـــرّ قلبــاه ممن قلبــه شــبم ... ومن بجـســمى وحــالى عنده سـقم

٢ - مالى أكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب ســيف الدولة الأمم؟

٣ - إن كــان يجـمــعنا حب لغــرته ... فليت أنا بقــدر الحب نقــتــسم

٤ - قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقــد نظرت إليــه والســيــوف دم

٥ - فكان أحــسن خلق الله كلهمُ ... وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم

٦ - فـوتُ العـدو الذى يممـتـة ظفـر ... فى طيّــه أسف فى طيّــه نعم

٧- قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهــابةمــا لا تصنع البُــهَم

٨ - ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ألا تــواريــهــم أرض ولا عــلــم

٩ - أكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصــرفت بك فى آثاره الهــمم؟

١٠ - عليك هزمهمُ فى كل معترك ... ومــا عليك بهم عــار إذا انهــزمــوا

١١ - أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم؟

١٢- يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

١٣ - أعــيــذها نظرات منك ثاقبة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

١٤ - وما انتفاع أخى الدّنيا بناظره ... إذا استــوت عنده الأنوار والظلم؟

١٥ - أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسـمــعت كلمــاتى من به صمم

١٦ - أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويســهــر الخلق جراها ويختــصم

١٧ - وجاهل مده فى جهله ضحكى ... حــتى أتتــه يد فــراســة وفم

١٨ - إذا رأيت نيــوب الليث بارزة ... فــلا تظنن أن الليث مــبــتــسم

١٩ - ومهجة مهجتى من هم صاحبها ... أدركــتــهــا بجــواد ظهــره حــرم

٢٠ - رجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفــعله مــا تريد الكف والقــدم

٢١ - ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حــتى ضــربت ومــوج الموت يلتطم

٢٢ ـ فالخيل والليل والبيداء تعرفنى — والسيف والرمح والقرطاس والقلم

٢٣ ـ صحبت فى الفلوات الوحش منفردا — حتى تعجب منى القور والأكم

٢٤ ـ يا من يعز علينا أن نفارقهم — وجداننا كل شىء بعدكم عدم

٢٥ ـ ما كان أخلقنا منكم بتكرمة — لوأن أمركم من أمرنا أمم

٢٦ ـ إن كان سركمُ ما قال حاسدنا — فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

٢٧ ـ وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة — إن المعارف فى أهل النهى ذمم

٢٨ ـ كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم — ويكره الله ما تأتون والكرم

٢٩ ـ ما أبعد العيب والنقصان من شرفى — أنا الثريا وذان الشيب والهرم

٣٠ ـ ليت الغمام الذى عندى صواعقه — يزيلهن الى من عنده الدّيم

٣١ ـ أرى النوى تقتضينى كل مرحلة — لا تستقل بها الوخادة الرّسم

٣٢ ـ لئن تركن ضميرا عن ميامننا — ليحدثن لمن ودعنهم ندم

٣٣ ـ إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا — ألا تفارقهم فالراحلون همُ

٣٤ ـ شر البلاد بلاد لا صديق بها — وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

٣٥ ـ وشر ما قنصته راحتى قنص — شهب البزاة سواء فيه والرخم

٣٦ ـ بأى لفظ يقول الشعر زعنفة — تجوز عندك لا عرب ولا عجم

٣٧ ـ هذا عتابك إلا أنه مقة — قد ضمن الدرّ إلا أنه كلم

* * *

حياة المتنبى

هو أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبى، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ، ولحظ أبوه فيه مخايل الذكاء فألحقه بإحدى المدارس العلوية فاتصل بتعاليم الشيعة، ولما نهب القرامطة الكوفة سنة ٣١٢انتقل به أبوه الى بادية السماوة وظل بها عامين أتاحا له أن ينهل من ينابيع اللغة، ثم عاد الى الكوفة مع أبيه وقد تفتحت ملكته الشعرية، ودرس الفلسفة، وظهرت فيه نزعة الى التشاؤم والثورة على الدهر والناس، ثم ترك الكوفة الى بغداد سنة ٣١٦هـ ثم ارتحل الى الشام فمدح بعض الأشراف، وظهرت حركة القرامطة فانضم اليها، ودعا الى نفسه وأراد أن يستولى على حمص، ولكن ثورته لم تنجح، وقبض عليه لؤلؤ والى حمص وزج به فى السجن سنة ٣٢٢ وظل به عامين وأشيع أنه ادعى النبوة ولقب بالمتنبى، والحقيقة أنه لم يدع النبوة، وإنما هى تهمة ألصقها به لؤلؤ ليثير الخلافة والناس ضده.

وتعرف المتنبى على بدر بن عمار والى دمشق، ووجد عنده ما كان يأمله من عطاء، كما وجد فيه الأمير العربى، وكان المتنبى عربيا متعصبا للعرب ساخطا على الولاة الأعاجم ومدح المتنبى بدر بن عمار، ثم تعرف على سيف الدولة الحمدانى الأمير العربى، ولقيه فى سنة ٣٣٧، ووجد عنده ما كان يأمله من عطاء ومن عزة وشجاعة وتقدير لشعره، وعاش معه نحو تسع سنوات، وحضر معاركه ضد الروم وشاركه أفراحه وآلامه، ومدائحه فيه تعد فى الذروة من شعر المتنبى ومن الشعر العربى عامة.

إلا أن المتنبى كان شديد الاعتزاز بنفسه، وكان كثير الفخر وكان يطعن على غيره من الشعراء فأثار الشعراء والعلماء ضده، وعلى رأسهم أبو فراس وابن جنى وابن خالوية، كما أن سيف الدولة ضاق بغروره المفرط مع شدة إعجابه بشعره، فعزم المتنبى على الرحيل، وأنشد قصيدته التى ندرسها أمام سيف الدولة وفيها إنذار بالرحيل، ولم يتحرك سيف الدولة لمنعه من الرحيل.

وقصد المتنبى مصر وكان يحكمها أونوجور بن الإخشيد وكان فى الرابعة عشرة من عمره فكانت السيطرة الفعلية لكافور الإخشيدى وهو عبد حبشى اشتراه الإخشيد ورباه ووصل إلى أعلى المراتب، ومع سخط المتنبى على الأعاجم

فقد اضطر الى مدح كافور، ووعده كافور بولاية ولكنه لم يف بوعده فهجاه، المتنبى هجاء مرا وهرب من مصر.

واتجه المتنبى الى الكوفة ثم بغداد ثم الى فارس، وفى الطريق خرج عليه بعض قطاع الطرق، وقيل: إنهم هاجموه بإيعاز من بعض الذين هجاهم المتنبى، وقاتلهم المتنبى، ولكنه قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤.

وكان المتنبى عالما لغويا وشاعرا عبقريا، وشعره صورة لحياته وأفكاره.

التعليق على القصيدة :

فى هذه القصيدة يعاتب المتنبى سيف الدولة ويمدحه وينذره بأنه سيغادر مملكة سيف الدولة، وقيل: إنها آخر قصيدة أنشدها أمام سيف الدولة قبل أن يرحل متوجها الى مصر، وقيل: إنه حدثت مشادة بين ابن خالوية والمتنبى وضرب ابن خالوية المتنبى بمفتاح فشج رأسه ولم يتحرك سيف الدولة، وقد بدأ المتنبى القصيدة بما يوهم أنه يتغزل حيث يقول:

واحـر قلبـــاه ممـن قلبــه شــبـم ومن بجسمى وحالى عنده سقم
ما لى أكتم حبا قد برى جسـدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم؟
إن كـــان يجمعنا حـب لغـرته فليـت أنا بقـدر الحب نقتسـم

البيت الأول يوهم بأنه يتغزل، ولكن البيت الثانى يكشف عن أنه يمدح سيف الدولة، والتعبير بضمير المذكر فى قوله: (قلبه شبم) لا ينفى أنه يتغزل، فقد كانوا يعبرون عن المحبوبة بضمير المذكر، والشبم البارد العذب فهى برودة ممدوحة لا مذمومة، ويطلقون على مطلع القصيدة (واحر قلباه) أسلوب ندبة واستغاثة، فهو يندب حظه ويستغيث من شدة حرارة قلبه، والسقم هنا المرض من شدة عذاب الحب ، وصرح فى البيت الثانى بأن الحب الذى يعلنه حبه لسيف الدولة، وأعلن أنه حب صادق، وحب كثير من الناس ادعاء كاذب، والتضعيف فى أكتم يفيد الكثرة والشدة، وفى البيت الثالث يأتى أسلوب التمنى (فليت أنا بقدر الحب نقتسم) والتمنى يفيد الحسرة، لأنه يحب سيف الدولة أكثر من غيره ولكنه لا ينال منه ما يناله غيره.

ثم ينتقل المتنبى الى المدح صراحة فيقول :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة   وقد نظـرت إليـه والسـيوف دم
فكان أحسن خلق الله كـلهمُ   وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم

وهنا يتحدث عن تفوق سيف الدولة فى السلم وفى الحرب، وقد رآه فى الحالتين، رآه والسيوف مغمدة، ورآه والسيوف تقطر دما، وتفوق سيف الدولة فى الحرب ينبع من شجاعته، أما تفوقه فى السلم فينبع من أخلاقه الحميدة، وأعلن المتنبى أن سيف الدولة أحسن خلق الله، وأن أحسن ما فيه أخلاقه، وهى نظرة صائبة فإذا كان الإنسان مجرد مقاتل لم يزد على أنه وحش، والأخلاق الحميدة مطلوبة فى السلم وفى الحرب.

وكان سيف الدولة قد أعد جيشا لحرب الروم وهرب جيش الروم قبل الالتحام بجيش سيف الدولة، ولم ينس المتنبى هذا الموقف واستغله فى المدح أعظم استغلال، وكان المتنبى عبقريا يعرف كيف يمدح، فكان يمدح سيف الدولة إذا قاتل وانتصر، ويمدحه إذا قاتل وانهزم، ويمدحه إذا هرب جيش العدو، وفى هذه القصيدة يقول:

فـوتُ العـدو الذى يممـتـة ظفـر   فى طيّــه أسف فى طيّــه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت   لك المهـابة مـا لا تصنع البُـهَم
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها   ألا تـواريـهـمُ أرض ولا عـلـم
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا   تصـرفت بك فى آثاره الهـمم؟
عليك هزمـهـمُ فى كل معـتـرك   ومـا عليك بهم عـار إذا انهـزموا
أمـا ترى ظفـرا حلوا سـوى ظفـر   تصافحت فيه بيض الهند واللمم؟

ويؤكد المتنبى أن هرب العدو ظفر مثل ظفر سيف الدولة فى المعركة، وهذا حق لأنه يدل على هيبة سيف الدولة وخوف العدو منه وإن كان سيف الدولة

أسف لذلك ولكنها نعمة من الله حيث سلم سيف الدولة وجيشه وتحقق له ما يريد، والبُهَم جمع بهمة وهو الشجاع، وحقا أن الخوف يصنع فى الجنود ما يصنعه العدو لأن الخوف يهد العزائم، ويؤكد الشاعر شجاعة سيف الدولة بأنه ألزم نفسه بأن يدمر الأعداء ويشتتهم وألا يتركهم يختفون فى أرض أو وراء جبل، ويأتى باستفهام للتعجب من تصميم سيف الدولة على تعقب العدو وتدميره، ثم يأتى بحكمة رائعة فيعلن أن سيف الدولة ملزم بأن يهزم عدوه ولكنه برىء من العار إذا انهزم العدو، ويأتى باستفهام للتقرير فيقرر أن سيف الدولة لا يلذ النصر إلا إذا ضربت سيوفه هامات العدو، واللمم جمع لمة وهى الشعر الملم بالمنكب.

ثم ينتقل المتنبى الىٰ العتاب مازجا بينه وبين المدح فيعاتب سيف الدولة لأنه ظلمه حين سوى بينه وبين غيره، وكان المتنبى يشعر بالتفوق وهو على حق، وكان سيف الدولة مقتنعا بتفوقه ولكنه ضاق بغروره، وسنرى فى هذه القصيدة أن المتنبى فضل نفسه على الناس جميعا، وينطوى هذا على أنه أفضل من سيف الدولة، وفى عتابه لسيف الدولة يقول

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك ثاقبة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم؟

وكان المتنبى رائعا فى عتابه فقد اتهمه بعدم العدل ولكنه أثبت له أنه أعدل الناس وأنه لم يعدل مع المتنبى فقط، ثم إنه سلم الأمر إلى سيف الدولة وجعله الخصم والحكم، فهو لا يشكوه إلى أحد غيره، ونزهه أن تكون نظراته خاطئة فيسوى بين الشحم والورم، ويرمز بالشحم الى شعر المتنبى، وبالورم إلى شعر غيره من الشعراء، وكذلك الأنوار والظلم، فالأنوار أشعار المتنبى ، والظلم أشعار غيره، وقد سارت الأبيات الثلاثة مسير الحكم والناس يتمثلون بقوله: أنت الخصم والحكم، وكذلك البيتان التاليان.

ويكثر المتنبى من الفخر، ويفتخر هنا بشعره وبعلمه باللغة وإلمامه بكل شاردة، وبقوته وشجاعته، وفى فخره بشعره وعلمه باللغة يقول :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وقد سار البيتان على ألسنة الناس، وكان أبوالعلاء المعرى يقول : إن المتنبى قصدنى بقوله : أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى، وهذا قمة العظمة والتأثير أن يراه الأعمى ويسمعه الأصم، ويعلن أنه يلم بشوارد اللغة وينام مطمئنا لإحاطته بها، والناس يسهرون ويختصمون، وكان المتنبى عالما لغويا وله فى ذلك مواقف، وكان أيضا يعقد بعض أبياته أحيانا ويجعل معناها غامضا ليختلف الناس حولها ويكثر الجدل والنقاش، وملء جفونى توحى باطمئنانه وثقته، والشوارد الكلمات الغامضة والقواعد الشاذة التى يجهلها الناس.

وفى فخره بقوته يضم شعره الى قوته لأن شعره من مصادر قوته، ويأتى بحكمة رائعة مسلمة فيقول :

وجاهل مده فى جهله ضحكى حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

كان المتنبى يبتسم ثقة بنفسه ولكنه يحذر الجاهل الذى يتجرأ على الإساءة إليه، فهنا اليد القوية واللسان الحاد، ولفظ فراسة صيغة مبالغة تدل على كثرة الافتراس، وهنا حكمة رائعة تطرح القضية وتفصل فيها، فنحن نرى نيوب الليث بارزة وليس معنى هذا أن الليث مبتسم.

وكان المتنبى عاشقا للخيل يتغزل فى عيونها السودويراها فى الحصون كالقلائد فى رقاب الحسناوات، ولم ينس هنا أن يشير الى الخيل التى تدرك أعداءه حيث يقول :

ومهجة مهجتى من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه فى الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم

وقد وصف الجواد بالسرعة والأصالة، فالجواد ظهره حرم لا يركبه أى إنسان، وهو سريع تتحرك رجلاه وكأنهما رجل واحدة، ويداه وكأنهما يد واحدة، وهو أصيل يفعل ما يريده صاحبه، والخيل معروفة بالذكاء وتطيع صاحبها إذا كان فارسا.

والسيف من لوازم الفارس فهو السلاح الذى يضرب به، وكان المتنبى فارسا شجاعا ولذلك يقول:

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

فهو يشق الصفوف ويضرب والموت يلتهم الفرسان، واختراق الصفوف ينبىء عن الشجاعة الفائقة، وقد شبه الموت بالموج المتلاطم ليوحى بهول الحرب.

وأخيرا يأتى ببيت يجمع فيه صفاته ومهاراته التى عرف بها وتدور حول الشجاعة والفصاحة:

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صحبت فى الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب منى القور والأكم

وقد سار البيت الأول على ألسنة المتأدبين، وكان المتنبى متشائما سيىء الظن بالناس يميل الى الوحدة ونراه هنا يركن الى الصحراء الموحشة منفردا حتى تتعجب الصحراء والخيل منه، والقور جمع قارة أرض فيها حجارة سود، والأكم جمع أكمة وهى الجبل الصغير.

وينتقل الشاعر الى هدف مهم فى القصيدة فينذر سيف الدولة بأنه عازم على الرحيل ، ويلقى باللوم على سيف الدولة :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركمُ من أمرنا أمم

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذى عندى صواعقه | يزيلهن الى من عنده الدّيم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة | لا تستقل بها الوخادة الرّسم

فى هذه الأبيات يعبر عن مشاعره نحو سيف الدولة على الرغم من عزمه على الفراق، ويعبر عن مكانته ، ويعبر عن موقف الحساد وموقف سيف الدولة.

أما عن مشاعره فهو يشعر بأن كل شىء سيصير عدما ولن يشعر بسعادة بعد فراق سيف الدولة، ولعله يستميله ليقدم على استرضائه وتحويله عن الرحيل، والمتنبى مع كل ذلك لا يتألم لشىء يرضى سيف الدولة، ومع ذلك فسيف الدولة يحاول إلصاق العيب به، أما عن مكانته فهو جدير بالتكرمة لأنه بعيد عن العيب والنقصان، ويأتى بتشبيه غاية فى الروعة فى هذا الموقف فهو الثريا فى السماء لا ينالها عيب ولا نقصان، وكان الواجب على سيف الدولة ألا يصغى الى الحساد وأن يرعى حرمة الماضى الذى ارتبط فيه المتنبى بسيف الدولة وأخلص كل منهما للآخر، ولكن سيف الدولة يصب نقمه على المتنبى، ويسبغ نعمه على غيره، وهكذا كتب على المتنبى أن يرحل ويقطع المراحل الشاقة التى تعيابها الإبل القوية والوخادة التى تسير الوخد وهو ضرب سريع من السير، والرسم جمع رسوم وهى التى تسير الرسيم وهو ضرب من السير أيضا.

ويستمر المتنبى فى فخره ويحذر سيف الدولة بأنه سيندم لفراق المتنبى، ويعلن أنه خير من يمشى على الأرض، ويصرح بأن باستطاعة سيف الدولة أن يثنيه عن الرحيل فإن قعدَ عن ذلك فسيف الدولة هو المفارق.

لئن تركنا ضميرا عن ميامننا | ليحدثن لمن ودعتهم ندم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا | بأننى خير من تسعى به قدم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا | ألا تفارقهم فالراحلون همّ

ويبرر المتنبى رحيله تبريرا نفسيا فيقول فى حكم رائعة:

شر البلاد بلاد لا صديق بها | وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص | شهب البزاة سواء فيه والرخم

وقد أصبح المتنبى يفتقد الصديق المخلص فى مملكة سيف الدولة فهى شر

البلاد، وكأنه يقول أيضا: إن موقف سيف الدولة قدوصمه لأنه يتخلى عن أصدقائه، ثم إن المتنبى لا يرضى إلا بعظائم الأمور ولا يرضى بما يرضى به عامة الناس، وشبه نفسه بالبازى، وشبه أصحاب النفوس الصغيرة بالرخم (طائر ضعيف).

ويعاتب سيف الدولة لأنه يسمع أشعار غيره من الشعراء الساقطين ويسوى بين العرب والعجم فيقول:

بأى لفظ يقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم

ويختم القصيدة ببيت رائع يقول :

هـذا عتـابك إلا أنـه مقـة قـد ضـمن الـدرّ إلا أنه كلـم

فالقصيدة عتاب ولكنه عتاب نابع من الحب، وهى كلام ولكنه ليس كغيره من الكلام فهو كلام غالى القيمة كالدر.

* * *

نقد القصيدة :

تدور هذه القصيدة حول عتاب سيف الدولة ومدحه وفخر المتنبى بنفسه لإثبات تفوقه، أما ما يوهم الغزل فى مطلع القصيدة فليس بغزل حقيقى، وكانوا يعبرون عن المحبوبة بضمير المذكر، فمطلع القصيدة ليس تقليديا، ولم يكن المتنبى يكثر من الغزل لأن انشغاله بمعالى الأمور صرفه عن الأنغماس فى الغزل، وقد بدأ القصيدة بالاستغاثة لشدة ما يعانيه من حرارة قلبه، والتضعيف فى الفعل (أكتم) يفيد كثرةْ الكتمان، والفعل (برى) يوحى بنحول الشاعر، ليت للتمنى يفيد الحسرة، والغرة بياض فى جبهة الفرس توحى بإشراق سيف الدولة، ويأتى الشاعر بأدوات التوكيد ومنها قد الداخلة على الفعل الماضى، وكذلك كلهم، وأحسن اسم تفضيل.

والمتنبى حريص على تأصيل الصفات فى سيف الدولة ويختار الألفاظ التى تحقق ذلك ومنها الفعل (ألزمت) ويدل هذا على أنها أصبحت عادة متأصلة فى سيف ألدولة، واستعمال أداة الشرط (كلما) يفيد ذلك لأنها أداة تفيد تكرار الجواب لتكرار الشرط فيتكرر انطلاق همته فى آثار العدو كلما هرب جيش العدو، والاستفهام فى قوله : (أما ترى . .) استفهام للتقرير لأن الهمزة دخلت على نفى.

وحين بدأ فى عتاب سيف الدولة كان رائعا حيث وصفه بأنه أعدل الناس واستثنى المتنبى شخصه، ومع ذلك فقد سلم الأمور إليه ورضى قضاءه وجعله الخصم والحكم، وحين وازن المتنبى بين شخصه وغيره من الشعراء جعل نفسه شحما وغيره ورما، وجعل نفسه نورا وغيره ظلما.

وفى فخره بشعره وقوة تأثيره يجعل الأعمى يرى أدبه، والأصم يسمعه، ويتحدث عن نومه ملء جفونه والناس ساهرة تتناقش حول شعره، وكان المنبى فى بعض الأحيان يتعمد تعقيد بعض الأبيات ليختلف الناس حولها ويكثر الجدل والحوار، وهذا يؤدى بالطبع الى ذيوع صيته، وكان المتنبى عالما لغويا كما كان شاعرا عبقريا.

وحين فخر بقوته وشجاعته جمع بين يده وفمه ليدل على ما لشعره من قوة

التأثير، وفراسة صيغة مبالغة تفيد كثرة الافتراس، وكان المتنبى فارسا، ولم ينس الخيل وكان المتنبى عاشقا للخيل يتغزل فى عيونها السود ويراها فى الحصون كالقلائد فى رقاب الحسناوات، ووصف الخيل بالسرعة والذكاء والطاعة لفارسها، ومن مظاهر حسن اختياره لألفاظه قوله: (بين الجحفلين) وتدل على اقتحامه قلب المعركة، وقوله: (موج الموت يلتطم) وتوحى بضراوة المعركة وكثرة القتلى، وقوله: (صحبت الوحش) تفيدطول المدة حتى نشأت هذه الصحبة بينه وبين الوحش، وحتى تفيد الغاية والغاية هنا أن الأرض نفسها تتعجب من حالته.

ويحاول المتنبى اجتذاب سيف الدولة واسترداد عطفة قبل أن ينفذ تهديده بالرحيل، وقد أعلن أنه يحب سيف الدولة، وأن سيف الدولة خير الناس، وأنه أعدل الناس، ويعلن مرة أخرى أنه إذا فارق سيف الدولة فسيكون كل شىء فى حكم العدم، وأنه راض بالجرح إذا رضى سيف الدولة ذلك ومع كل هذا فالصواعق تصيب المتنبى، والديم تصيب غيره.

وفى البيت قبل الأخير يظهر تعصب الشاعر للعرب حيث ينكر على سيف الدولة أن يسوى بين العرب والعجم، ويأتى باستفهام للإنكار.

والمتنبى شاعر الحكمة، وقد دارت بعض الشطرات والأبيات فى هذه القصيدة على الألسنة على مر العصور ومنها: فيك الخصام وأنت الخصم والحكم، ومنها: وجداننا كل شىء بعدكم عدم، ومنها: أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم.. وكان ختاما رائعا للقصيدة أن جعل العتاب حبا، والشعر درا، فحقق الاسترضاء والفخر.

التصوير :

فى القصيدة كثير من الصور البيانية الرائعة، ومنها الاستعارة المكنية فى قوله: قد ناب عنك شديد الخوف، وقوله: تصافحت فيه بيض الهند واللمم

حيث شبه الخوف والسيوف بإنسان، ونرى الاستعارة التصريحية فى لفظة (الدر) حيث شبه كلماته العظيمة بالدر وحذف المشبه، ونرى التشبيه فى قوله (أنا الثريا وذان الشيب والهرم) - ونرى الكناية فى قوله: أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى. كناية عن قوة تأثير شعره.

المحسنات البديعية :

والمتنبى لا يتكلف المحسنات البديعية وإن كان يهتم بالطباق والمقابلة، كما نرى فى البيتين الأول والثانى.

* * *

رســــالة

كتب ابن عبد كان عن أحمد بن طولون الى ابنه العباس حين عصى بالاسكندرية:

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم لنفسه، العاصى لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه، العادى لطوره، الجاهل لقدره، الناكص على عقبه، المركوس فى فتنته، المبخوس من حظ دنياه وآخرته.

سلام على كل منيب مستجيب، نائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم (١) وحلول الفوت والندم.

وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، والطول الجليل، وأسأله مسألة مخلص فى رجائه، مجتهد فى دعائه أن يصلى على محمد المصطفى وأمينه المرتضى.

أما بعد، فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنملة يكون حتفها فى جناحيها، وستعلم هبلتك الهوابل، أيها الأحمق الجاهل، الذى ثنى على الغى عطفه، واغتر بضحاح (٢) المواكب خلفه أى موردة هلكة بإذن الله توردت إذ على الله جل وعز تمردت وشردت، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا **﴿ قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾**.

وإنا كنا نقربك إلينا ونسبك الى بيوتنا طمعا فى إنابتك وتأميلا لفيئتك، فلما طال فى الغى إنهماكك، وفى غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الموعظة تلين كبدك ولا التذكير يقيم أودك لم تكن لهذه النسبة أهلا، ولا لإضافتك إلينا موضعا ومحكا، بل لا نكنى بأبى العباس إلا تكرما وطمعا بأن يهب الله منك خلفا نقلده اسمك ونكنى به دونك، ونعدك كنت نسيا منسيا، ولم تك شيئا مقضيا، وأعلم أن البلاء - بإذن الله - قد أظلك، والمكروه - إن شاء الله - قد أحاط بك، والعساكر - بحمد الله - قد أتتك كالسيل فى الليل، تؤذنك بحرب وبويل،

---

(١) الكظم بفتح الظاء مخرج النفس.

(٢) الضحاح الريح.

منفقين فيك كل مال خطير، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت، وتستدفع من البلاء ما استدعيت، حين لا دافع بحول الله عنك، ولا مزحزح لنا عن ساحتك، فحينئذ يتغرى لك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما، وتعلمْ أنك كنت متمسكا بحبائل غرور، متماديا فى مقابح أمور، من عقوق لا ينام طالبه، وبغى لا ينجو هاربه.

وإن مما زاد فى ذنوبك ما ورد به كتابك علىّ من تمويهات وأعاليل، وعدات بالأباطيل، من مسيرك بزعمك الى لإصلاح ما ذكرت أنه فسد علىّ، وإنك إن شاء الله لا تقصد موضعا إلا تلوتك، ولا تأتى بلدا إلا قفوتك، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله - عز وجل فى جذ حبلها وفض عروتها فإن أحدا لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا، فأما الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق، ومخالفة ربك وإسخاطه، وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقته وحملت نفسك على الإيثار به، ما يتهيأ لك مكاثرتنا بمثله مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التي أستودعه تبارك وتعالى إياها وأرغب إليه فى إنمائها.

فاصلح أيها الصبى الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا، واحزم فى أمرك قبل استعمالك الحزم لنا، فما أحوجنا الله - وله الحمد - الى نصرتك ومؤازرتك، ولا اضطررنا الى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك (وما كنت متخذ المضلين عضدا).

وليت شعرى على من تهول بالجنود وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك الباذلون دماءهم وأموالهم دونك دون رزق ترزقهم إياه ولا عطاء تدره عليهم؟ فإن كان يدعوهم الى نصرتك هيبتك والخوف من سلطانك فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، ولو كانوا جميعا معك ومقيمين على نصرتك لرجونا أن يمكن الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم.

وما دعانى الى الإرجاء لك والتسهيل من خناقك والإطالة من عنانك إلا أنى

رجوت أن تحن الينا حنين الولد، وتتوق إلينا توقان ذى الرحم، فإن بي رفقنا بك ما يعطفك إلينا، وفى تآخينا إياك ما يردك علينا، فأما الآن مع اضطرارك إياى الى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوك، وحبسك رسلى، واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تدبيرك فما أنت بموضع للصيانة، ولا أهل للإبقاء والمحافظة، بل اللعنة عليه حالة، والذمة منك برية، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة، والإضاعة لرحم الأبوة، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، وأثكلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفظك.

فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار، والغدوّ والآصال، ولأكتبن الى مصر وأجناد الشام والثغور والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتبا تقرأ على منابرها فيك باللعن لك، والبراءة منك، يتناقلها آخر عن أول، ويأثرها غابر عن ماض، وتخلد فى بطون الصحائف، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما اطرد الليل والنهار، واختلف الظلام والأنوار.

فحينئذ تعلم أيها المخالف أمر ربه، القاطع رحمه، العاصي ربه أى جناية على نفسك جنيت، وأى كبيرة اقترفت واجتنيت ، وتتمنى أن لم تكن ولدت، ولا في الخلق عرفت، إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع الى من قبلنا خاضعا ذليلا كما يلزمك فنقيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه إن شاء الله تعالى.

* * *

قيام الدولة الطولونية فى مصر

فى سنة ٢٥٤ ولى الخليفة المعتز حاجبه بايكباك مصر، فأناب عنه ابن زوجته أحمد ابن طولون، وهو تركى الأصل ولد سنة ٢٢٠هـ وربى تربية صالحة وحفظ القرآن وسمع المحدثين وتعلم العلوم العربية والشرعية، وكان ذكيا فعد من فصحاء رجال السياسة بلسانه وقلمه، ورزق صوتا جميلا وأتقن الموسيقى ونظم الشعر بالتركية لغة أبيه وأمه.

قدم أحمد بن طولون مصر واليا عليها سنة ٢٥٤ وكان طموحا وأخذ يعمل على الاستقلال بمصر وجمع فى يده الإدارة السياسية والمالية، وكون جيشا ضخما بلغ مائة ألف مقاتل، وبنى مدينة القطائع وأنشأ مسجده المعروف باسمه، وكان أحمد بن طولون قاسى القلب يأخذ بالشبهة ويشتد فى العقاب.

ومن أبرز الأحداث فى عهد ابن طولون خروج ابنه العباس عليه وتحصنه فى مدينة الاسكندرية وقامت الحرب بين الأب وابنه، وانتهت بهزيمة العباس وأسره وسجنه، ومات أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ وتولى ابنه خمارويه، وكانت نهاية خمارويه أنه قتل فى دمشق سنة ٢٨٢ وتولى من بعده ابنه الأكبر أبو الجيش ثم خلع بعد عام، وتولى أخوه هارون، ثم اغتيل هارون سنة ٢٩٢ وتولى عمه شيبان، وأرسل الخليفة المكتفى جيشا بقيادة محمد بن سليمان قضى على الدولة الطولونية وأخذ أفرادها وأرسلهم الى بغداد، وعادت مصر ولاية عباسية يتعاقب عليها الولاة، حتى جاء محمد بن طغج الإخشيد وأقام الدولة الإخشيدية بمصر.

الحياة الأدبية فى عهد الدولة الطولونية :

شهد العصر الطولونى نهضة علمية أدبية، واهتم بديوان الرسائل حتى أشبه ديوان الخلافة، وكان قد استصحب معه عند حضوره الى مصر بعض الكتاب العراقيين مثل ابن عبدكان، واستكتب جعفر بن عبدالغفار وكان من أصل مصرى، وكان ابن طولون يشرف بنفسه على كل شىء ويقرأ الرسائل ويضيف بيده ما يريد إضافته دون أن يطلع عليه كتابه، وكان يجيد العربية وكان ذواقة لألفاظ اللغة ومعانيها.

ووردت إلينا رسائل كثيرة من العهد الطولونى، ومعظم هذه الرسائل سياسية صدرت من مصر أو وردت إليها، وبعضها تبودل بين ابن طولون والخليفة أو كبار الشخصيات، وبعضها رسائل داخلية تبودلت بين ابن طولون وابنه العباس، وبين ابن طولون وكبار الشخصيات فى مصر.

أما الرسائل الاجتماعية فكانت قليلة ودارت حول أغراض عديدة كالتهنئة والشفاعة، ومن الطبيعى ألا تشيع الرسائل الاجتماعية وتنتشر كشيوع الرسائل السياسية، وكان المؤرخون يركزون اهتمامهم حول الرسائل السياسية.

وأنتج العهد الطولونى كتابا بعنوان (المكافأة) كتبه أحمد بن يوسف، ويحوى إحدى وسبعين قصة قصيرة تدور حول المكافأة على الجميل بالجميل، والمكافأة على القبيح بالقبيح، وحسن العقبى لمن وقع فى شدة ثم خلص منها.

وكانت اللغة العربية تزداد انتشارا على مر الأيام، حتى إذا كان القرن الرابع سيطرت اللغة العربية وتغلبت على اللغتين اليونانية والقبطية.

شرح رسالة أحمد بن طولون الى ابنه العباس :

أبرز الأحداث فى عهد ابن طولون ثورة ابنه العباس على والده واشتعال الحرب ينهما، وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة العباس وضربه وحبسه.

حاول أحمد بن طولون أن يستميل ابنه العباس فأمر ابن عبدكان أن يكتب رسالة الى العباس يستميله وينصحه، وكتب ابن عبدكان الرسالة، ولكنها لم تؤت ثمرتها المرجوة، لأن العباس كان قدر ركب رأسه وأجمع أمره

وكتب ابن عبدكان رسالة ثانية على لسان أحمد بن طولون، وكان العباس متحصنا بالاسكندرية، وجاءت الرسالة مطولة وافتن فيها ابن عبدكان لعله ينفذ الى قلب العباس، وبدأ الرسالة بأن أضفى الشرعية على ابن طولون ونسب العباس الى الخسران فى الدنيا والآخرة حيث يقول:

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم لنفسه، العاصى لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه، العادى لطوره، والجاهل لقدره،والناكص على عقبه، المركوس فى فتنته ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ».

تبدأ الرسالة بذكر المرسل والمرسل إليه : (من أحمد بن طولون الى الظالم لنفسه)، وهى من الرسائل السياسية المطولة، وكاتب الرسالة ابن عبدكان، ولكنه يكتب باسم أحمد بن طولون، ووصف ابن طولون بأنه مولى أمير المؤمنين ليضفى الشرعية على ابن طولون، ويؤكد أنه من أتباع أمير المؤمنين، وكان العباس يتهم أباه بأن أمور أمير المؤمنين اختلت فى يد ابن طولون.

وسارع الكاتب الى توبيخ العباس واتهامه بكل التهم، وراح يعمق التهمة ويبرز جوانب مختلفة من عيوب العباس ويقلب المعنى على وجوهه المختلفة ويظهره فى مظاهر متغايرة، فظلم الإنسان لنفسه جريمة، وعصيانه لربه جريمة أخرى، وإفساد الإنسان ما كسبه حمق، وجهل الانسان قدره مهانة، ونكوص الإنسان على عقبة خور، والإركاس فى الفتنة ضلال، والنحس سوء طالع، وقد جمع الكاتب عيوب الدنيا والآخرة وألصقها بالعباس.

وأخر الكاتب السلام والتحميد الى ما بعد هذا الهجوم ليبرز عيوب العباس فى مقدمة الرسالة، ثم أتى بالسلام والتحميد حيث يقول: « سلام على كل منيب مستجيب، نائب من قريب، قبل الأخذ بالكظم وحلول الفوت والندم، وأحمد الله الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل، وأسأله أن يصلى على محمد المصطفى ».

والسلام هنا مقيد وليس بمطلق، فهو سلام على كل راجع الى الحق من قريب، والسلام الأمان ولا أمان للعاصى ربه، وكان الشعور الدينى مازال قويا فى تلك الفترة، وكانوا دائما يحمدون الله ويصلون على النبى.

ثم انتقل الكاتب الى توبيخ العباس وصوره فى صورتين يبرزان حمقه وأنه يسعى بنفسه الى هلاكه فقال: «أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنملة يكون حتفها فى جناحيها» فهو كالبقرة تؤذى الناس فتدفعهم الى ذبحها، والنملة تحوم حول النار فتحترق بها، وهنا صورتان، مألوفتان راسختان فى كل نفس، ويلجأ الى التوكيد بإن، والصورتان تبرزان العدوان وفساد العقل.

ويستمر فى تهديد العباس فيقول :« وستعلم - هبلتك الهوابل - أيها

الأحمق الجاهل » والسين للتوكيد، والفعل يعلم يؤكد أنه سيرى ذلك يقينا، والجملة الاعتراضية (هبلتك الهوابل للدعاء عليه بالهلاك، والثانية (أيها الأحمق الجاهل) للتوبيخ ، ويقتبس من القرآن آية تفيد أن الإنسان يبطر على نعم الله فيبدل الله حاله من السعادة الى الشقاء، والآية تقول : ﴿ **قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ .

ويوجه الى العباس إنذارا بأنه يئس من إنابته ويبرأ منه، ويعلن أنه لا يكنى نفسه بأبى العباس إلا أملا فى أن يهب الله من العباس ولدا يسميه العباس وتكون الكنية له ويعفى النسيان على العباس العاصي وكأنه لم يكن، ويقتبس هنا من القرآن أيضا فيقول : « ونعدك كنت نسيا منسيا، ولم تك شيئا مقضيا »، وفى القرآن الكريم على لسان السيدة مريم .. ﴿ **ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** ﴾، ويقول لها الملك : ﴿ **وكان أمرا مقضيا** ﴾ .

ويعلن الكاتب الحرب على العباس فيقول : « واعلم أن البلاء - بإذن الله - قد أظلك، والمكروه - إن شاء الله - قد أحاط بك، والعساكر - بحمد الله - قد أتتك كالسيل فى الليل تؤذنك بحرب وبويل »، ويقدم الكاتب المشيئة (بإذن الله، إن شاء الله) تفاؤلا بوقوع ذلك، ويعبر بالبلاء والمكروه، ويجعل البلاء يظله، والمكروه يحيط به، ويأتى بأداتين للتوكيد : أن وقد، ويشبه العساكر التى سيرسلها أحمد بن طولون بالسيل فى الليل، والسيل جارف لا يمكن مقاومته، والليل رهيب يزيد الهم والحيرة .

وتكشف هذه الرسالة عن أن العباس أرسل الى والده بأنه سيسير إليه بجيوشه ليصلح ما أفسده أحمد بن طولون، ويرد عليه الوالد بأنه سيهاجم فى كل مكان يحل فيه ولن يصرفه عنه صارف .

وتجمع الرسالة بين الاستثارة العاطفية والإقناع العقلى، وهنا يحاول إقناع ابنه بأن مصيره الفشل فيقول له : « وإن أحدا لا يؤوي مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا، فأما الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق ومخالفة ربك وإسخاطه، وأما الدنيا فما أراه بقي من الحطام ما يتهيأ لك مكاثرتنا

بمثله »، وبذلك جرده من عوامل النجاح الدينية والدنيوية، فقدأسخط ربه بمخالفة أبيه، وفقد عوامل النجاح الدنيوية لأن ما معه من أموال يجتذب بها الأنصار لا تساوى ما مع والده.

ويستمر الكاتب فى مناقشة عقلية مقنعة فيقول : « فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والخوف من سلطانك فإنهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك » . وقد حدد عاملين للالتفاف حول الرئيس ، أولهما : الهيبة،والوالد يملك منها مالا يملكه الولد،وثانيهما : المال، وهو عند الوالد أوفر مما عند العباس، وبذلك يفقد العباس الأمل فى وجود الأنصار والنجاح.

ويعلن أحمد بن طولون أنه تأخر عن الحرب أملا فى عودة ابنه الى الطاعة، ولكن العباس جمح وتمرد وسلك سبلاً منافية للعرف، حيث حبس الرسل الذين أرسلهم أحمد بن طولون، ولجأ الى الخداع، وقد نفد صبر أبيه وتحول قلبه عنه، ولذلك يلعنه ويتبرأ منه ويدعو بهلاكه.

ويعلن ابن طولون أنه سيكتب الى البلاد كتبا تقرأ فيها بلعن العباس والتبرؤ منه، تلحق به العار على مر الزمان، يقول: « والله لأستعلمن لعنك فى دبر كل صلاة، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ولأكتبن الى مصر وأجناد الشام والثغور والعواصم ومكة والمدينة كتبا تقرأ على منابرها فيك باللعن لك، والبراءة منك يتناقلها آخر عن أول وتخلد فى بطون الصحائف، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما أطرد الليل والنهار » .

ويترك الوالد الباب مفتوحا ويراوده الأمل فى أن يعود الولد الى أحضان أبيه مستغفرا وحينئذ يغفر الأب، ويحل الرضا محل الغضب، يقول : « إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى من قبلنا خاضعا ذليلا، فنقيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه، إن شاء الله تعالى »، وكما قيد السلام فى أول الرسالة فجعله لكل منيب مستجيب، قيده هنا فجعله لمن سمع الموعظة فوعاها وذكر الله فاتقاه.

الأسلوب :

كان أسلوب الكتابة فى القرن الثالث الهجرى يتراوح بين الأسلوب المرسل والأسلوب المسجوع ، وكان هذا بداية لسيادة الأسلوب المسجوع فى القرن الرابع، ونرى الرسالة التى كتبها أحمد بن طولون أو بعبارة أخرى كتبها ابن عبدكان يسودها الأسلوب المسجوع، وكان ابن عبدكان لا يركز اهتمامه فى أداء المعانى التى يريد توصيلها، وإنما كان يهدف الى جانب ذلك الى إظهار المهارة الفنية والى تجميل الأسلوب ليكون أشد تأثيرا فيمن يراسله ، ولذلك لجأ الى الاطناب والتكرار والسجع ليؤكد المعنى ولتزداد فرص التأثير فى الملتقى .

والسجع واضح فى هذه الرسالة ويكفى أن نقرأ الفقرة الأولى فنرى بها : « العاصى لربه، الملم بذنبه، المفسد لكسبه » والسجع فى الرسالة أوضح من أن يحتاج الى تتبع وتوضيح .

ونرى الطباق والجناس أيضا كقوله فى الفقرة الأولى : « المبخوس من حظ دنياه وآخرته » وهنا طباق، ونرى الجناس في قوله : « البلاء الجميل والطول الجليل »، ونرى الازدواج يسود الرسالة، والمراد به تساوى الجمل فى النغم الموسيقى، وهو كثير ومنه قوله :« فلما طال فى الغى انهماكك، وفى غمرة الجهل ارتباكك، ولم نر الموعظة تلين كبدك، ولا التذكير يقيم أودك » . وتتراوح الرسالة بين الجمل الطويلة والجمل القصيرة، ومن الجمل القصيرة قوله : « بل اللعنة عليك حالة، والذمة منك بريئة »، ومن الجمل الطويلة قوله : « وإنا وإن كنا نقربك إلينا وننسبك الى بيوتنا طمعا فى إنابتك . . » .

وكان الكتاب يختارون بعد امتحانات عسيرة فى اللغة والأدب والنحو والثقافة العامة، ونرى الصحة النحوية والسلامة اللغوية يسودان الرسالة، والكاتب قدير على اختيار الألفاظ الملائمة الموحية بالمعانى المرادة، كما نرى فى قوله : « أيها الأحمق الجاهل »، فالأحمق فاسد العقل، والجاهل الذى لا يدرى حقائق الأمور، وإذا اجتمع الحمق والجهل كانت الكارثة، وكما نرى فى قوله : « واعلم أن البلاء قد أظلك، والمكروه قدأحاط بك »، وإذا أظله الشر من فوقه وأحاط به من كل جانب لم يكن هناك سبيل الى النجاة .

والألفاظ يغلب عليها السهولة والوضوح، والألفاظ المعجمية نادرة، ومنها المركوس أى المردود، والكَظم مخرج النفس، وهبلتك ثكلتك، والوقر ثقل فى الأذن.

ويستعمل الكاتب أدوات التوكيد فى موضعها حين يكون الموقف محتاجا إلى التوكيد، وتدخل هذه الأدوات على الأسماء والأفعال، ومن ذلك قوله: «فإن مثلك مثل البقرة»، فيؤكد بإن، ويقول: «وستعلم» فيؤكد بالسين، ويقول: «واعلم أن البلاء قد أظلك»، فيؤكد بأن وقدوالفعل الماضى، ويقول: «فوالله لأستعملن لعنك»، فيؤكد بالقسم ونون التوكيد، ويستعمل كثيرا أسلوب القصر، كما فى قوله: «لا تكنى بأبى العباس إلا طمعا».

ويقتبس الكاتب من القرآن الكريم، وفى طعنه على ابنه أنه استبدل بحياة الأمن حياة القلق والخوف يقتبس الآية: ﴿**قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾، ويقتبس من سورة مريم آيتين فيقول: ﴿**ونعدك كنت نسيا منسيا**﴾، وهو من قول السيدة مريم: «ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا»، ويقتبس الآية: ﴿**ولم تك شيئا مقضيا**﴾، وهو من قول الملك: ﴿**وكان أمرا مقضيا**﴾، ويقتبس الآية: ﴿**وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾، ويقول: ﴿**فعليك لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين**﴾، وهو من قوله تعالى: ﴿**عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾.

ويأتى الكاتب بالأساليب الإنشائية لأغراض بلاغية فيقول: «أيها الأحمق الجاهل»، وهو نداءللتوبيخ، ويقول: «فأصلح أيها الصبى أمر نفسك»، والأمر للنصح، والنداء للتحقير، «ليت شعرى» التمنى لإظهار الحيرة، وقوله: «فوالله» قسم للتوكيد.

ويستعمل الكاتب الجمل الاعتراضية لأغراض متنوعة فيقول: «وستعلم هبلتك الهوابل»، للدعاء عليه، ويقول: «بإن الله، إن شاء الله»، طمعا فى أن يحقق الله ما يدعو به، وقوله: «بحمد الله، له الحمد» لإظهار الرضا بما سيكون، ويقول يا أيها المخالف أمر ربه» لتوبيخه.

الصور البيانية :

ترسم الرسالة صورة منفرة للعباس بن أحمد بن طولون، وقد حوت الرسالة كثيرا من الصور الجزئية، فنرى التشبيه فى قوله : « العساكر كالسيل » ونرى التشبيه البليغ فى قوله : « لباس الجوع والخوف »، شبه الجوع والخوف باللباس الذى يكسو، من إضافة المشبه به الى المشبه، ونرى الاستعارة التصريحية فى قوله : « ضحاح المواكب » والضحاح الريح، شبه الأصوات الجوفاء بالريح وحذف المشبه، ونرى الاستعارة المكنية فى قوله : « البلاء أظلك والمكروه أحاط بك » شبه البلاء بشجرة أو مظلة، وشبه المكروه بسور يحيط به، وحذف المشبه به، وأتى بصفة من صفاته، ونرى الكناية فى قوله : « يقيم أودك » كناية عن تقويمه وإصلاحه .

ويوجد التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية، فالتشبيه التمثيلى فى قوله : « فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها، والنملة يكون حتفها فى جناحيها »، شبه العباس فى لجوئه الى العصيان وإثارة والده بالبقرة تنطح الناس فتثيرهم فيذبحونها، وكذلك النملة التى تسعى الى الناس فيكون مصيرها الاحتراق، وهنا نرى المشبه والمشبه به، أما الاستعارة التمثيلية ففى قوله : ﴿ **قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ شبه العباس، حيث كان يعيش آمنا سعيدا ثم تمرد على والده فوقع فى الخطر والمهانة بقرية كانت تعيش آمنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله الخوف والجوع، وهنا حذف المشبه وأبقى المشبه به، فهى استعارة تمثيلية .

* * *

المقامة الإبليسية

حدثنا عيسى بن هشام قال: أضللت إبلالى فخرجت فى طلبها فحللت بواد خضر فإذا أنهار مطردة، وأشجار باسقة، وأثمار يانعة، وأزهار منورة، وأنماط (١) مبسوطة، وإذا شيخ جالس، فراعنى منه ما يروع الوحيد من مثله، فقال: لا بأس عليك، فسلمت عليه، وأمرنى بالجلوس فامتثلت، وسألنى عن حالى فاخبرت، فقال لى: أصبت دالتك (٢)، ووجدت ضالتك (٣)، فهل تروى من أشعار العرب شيئا؟ قلت: نعم، فأنشدت لامرىء القيس وعبيد ولبيد وطرفة، فلم يطرب لشىء من ذلك، وقال: أنشدك من شعرى، فقلت له: إيه، فأنشد:

بان الخليط (٤) ولو طوعت ما بانا   وقطعوا من حبال الوصل أقرانا (٥)

حتى أتى على القضيدة كلها، فقلت: ياشيخ هذه القصيدة لجرير، قد حفظها الصبيان، وعرفها النسوان، وولجت الأخبية (٦)، ووردت الأندية، فقال دعنى من هذا، وإن كنت تروى لأبى نواس شعراً فأنشدينه فأنشدته:

لا أندب الدهر ربعا غير مأنوس   ولست أصبو الى الحادين بالعيس (٧)

أحق منزلة بالهجر منزلة   وصل الحبيب عليها غير ملبوس (٨)

يا ليلة عبرت ما كان أطيبها   والكوس تعمل فى إخواننا الشوس (٩)

وشادن نطقت بالسحر مقلته   مزنر حلف تسبيح وتقديس (١٠)

---

(١) أنماط جمع نمط ضرب من البسط.

(٢) الدالة الدليل الذى يهديك.

(٣) الضالة التى تبحث عنها.

(٤) بان فارق، الخليط الاحبة المخالطون، طوعت اطعت.

(٥) أقرانا حبالا مقرونة قوية.

(٦) ولجت دخلت - الاخبية جمع خباء وهو الخيمة.

(٧) الربع البيت القديم الخالى - الحادى من حدا الإبل ساقها وغنى لها - العيس النوق.

(٨) ملبوس من لبس القوم عاش معهم دهرا.

(٩) الشوس جمع أشوس. والشوس النظر بمؤخر العين كناية عن التكبر.

(١٠) الشادن الغزال الصغير، والزنار - حبل يشد فى الوسط - حلف حليف.

نازعته الريق والصهباء صافية   في زى قاض ونسك الشيخ إبليس [١]

قال: فطرب الشيخ وشهق وزعق، فقلت: قبحك الله من شيخ، لا أدرى أبا نتحالك شعر جرير أنت أسخف؟ أم بطربك من شعر أبى نواس وهو فويسق عيار[٢]؟ فقال: دعنى من هذا وامض على وجهك، فإذا لقيت فى طريقك رجلا معه نحى [٣] صغير يدور فى الدور حول القدور، يزهى بحليته ويباهى بلحيته، فقل له: دلنى على حوت مصرور [٤] فى بعض البحور، مخطف [٥] الخصور، يلدغ كالزنبور ويعتم بالنور، أبوه [٦] حجر، وأمه ذكر، ورأسه ذهب، واسمه لهب، وباقيه ذنب، له فى الملبس عمل السوس، وهو فى البيت آفة الزيت، شريب لا ينقع، أكول لا يشبع، بذول لا يمنع، ينمى الى الصعود، ولا ينقص ماله من وجود، يسوؤك ما يسره، وينفعك ما يضره.

وكنت اكتمك حديثى وأعيش معك فى رخاء، لكنك أبيت فخذ الآن:

فما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا الشيخ أبو مرة [٧]، قال عيسى بن هشام: ثم غاب ولم أره، ومضيت لوجهى فلقيت رجلا فى يده مذبة، فقلت: هذا والله صاحبى، وقلت له ما سمعت منه، فناولنى مسرجة وأومأ الى غار فى الجبل مظلم فقال: دونك الغار ومعك النار، قال: فدخلته فإذا أنا بإبلى قد أخذت سمتها [٨]، فلويت وجوهها ورددتها.

---

(١) الصهباء الخمر.

(٢) العيار الكثير الطواف فى البلاد.

(٣) النحى وعاء من الجلد. يصف المذبة التى يطرد بها الذباب عن الطعام.

(٤) حوت مصرور يصف ذبالة السراج على طريق الإلغاز - مصرور مشدود أى أن الذبالة فى السائل كالحوت المشدود فى بعض البحور.

(٥) مخطف ضامر.

(٦) أبوه حجر لأن الزيت يفرزه الحجر بالعصر، وأمه أى الوعاء الذى يوضع فيه الزيت اسمه.

(٧) أبو مرة كنية إبليس.

(٨) السمت الطريق.

وبينا أنا في تلك الحالة في الغياض [1] أدب الخمر إذ بأبي الفتح الاسكندري تلقاني بالسلام، فقلت: ما حداك ويحك الى هذا المقام؟ قال: جور الأيام في الأحكام وعدم الكرام من الأنام، قلت: فاحكم حكمك يا أبا الفتح، قال احملني على قعود، وأرق لي ماء في عود، فقلت: لك ذلك، فأنشأ يقول:

نفسي فـداء محـكم   كلفته شططا فأسجح [2]

ما حـك لحيتـه ولا   مسـح المخـاط ولا تنحنح

ثم أخبرته بخبر الشيخ، فأوما الى عمامته وقال: هذه ثمرة بره. فقلت: يا أبا الفتح شحذت على إبليس إنك لشحاذ.

بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني، ولد في همذان سنة ٣٥٨هـ، وتوفي سنة ٣٩٨هـ، وكان عربيا يعتز بعروبته، وقد ظهرت أمارات الذكاء والعبقرية وقوة الحافظة ـ عليه منذ صباه، فكان يسمع القصيدة فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها، وكان ينظر في الكتب فيحفظها عن ظهر قلب، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئي بآخر سطر منه، ثم هلم جرا الى الأول، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية ويصوغها شعرا عربيا.

وكان بديع الزمان مقبول الصورة خفيف الروح حسن العشرة شريف النفس، حلو الصداقة مر العداوة، وإلي جانب ذلك كان أبيا معتزا بنفسه،وكان يفارق البلاد والرؤساء إذا رأى منهم جفوة، ولذلك نراه كثير التجوال والترحال لايكاد يقر له قرار، وقد زار أصبهان وسنه أثنتا عشرة سنة، ثم فارق همذان وعمره أثنتان وعشرون سنة وذهب إلى أصبهان مرة أخرى، حيث زار الصاحب ابن عباد، ثم زار جرجان ثم قصد نيسابور سنة ٣٨٢، وفيها كتب مقاماته

---

(١) الغياض الأشجار الكثيفة ـ الخمر بالتحريك ما واراك من الشجر والجبال أدب الخمر أسير على غير هدى.

(٢) الشطط الخروج عن الحد، أسجح لان وتساهل.

الشهيرة، وغادر نيسابور الى سجستان، ثم الى غزنه، وأخيرا ذهب الى هراة وصاهر إحدى الأسر الكريمة وانتظمت أحواله، ولكن مات عن أربعين عاما، وقيل: إنه مات مسموما وقيل: إنه مات من السكتة وعجل دفنه فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل، ومات من هول القبر.

وكان القرن الرابع الهجرى الذى ولد فيه بديع الزمان قرن النهضة العلمية والأدبية، وقرن التأنق فى الأسلوب والتعمق فى المعانى، وجاء أدب بديع الزمان صورة للأدب فى تلك الفترة المزدهرة.

المقــامات :

عرفت لفظة مقامة فى العصر الجاهلى بمعنى المجلس أو الجماعة الذين يجلسون فى المجلس، وفى العصر العباسى استعملت بمعنى الحديث الأدبى المكتوب، ثم استعملت بمعنى الحديث الذى يلقى فى المجلس، وقد أعطى بديع الزمان المقامة معنى اصطلاحيا غلب عليها، حيث استعملها فى (حديث المعتفين الذى يلقى فى جماعة فى شكل قصصى يهتم بالأسلوب ويتخذ راوية وبطلا) .

وبديع الزمان أول من أنشأ المقامات واتخذ راوية وبطلا، والراوية عيسى ابن هشام، والبطل أبوالفتح الاسكندرى فى معظم المقامات وهما شخصيتان خياليتان لا وجود لهما، وقصد بديع الزمان الى إعطاء نفسه حرية الحركة فى الأزمنة والأمكنة، ويبدأ المقامة بعبارة (حدثنا عيسى بن هشام قال)، وفى المقامة يلتقى عيسى بن هشام بأبى الفتح الاسكندرى ويتعرف عليه بعد أن يستمع الى حديثه، وأحيانا يتعرف عليه قبل أن يستمع الى حديثه، وقد ظهر أبوالفتح الاسكندرى بطلا لأربعين مقامة من مجموع المقامات التى وصلت خمسين مقامة، ولا يظهر أبوالفتح فى سمة واحدة فى المقامات فهو تارة شاب وتارة كهل وتارة وسيم وتارة قبيح المنظر، كما أنه يظهر فى مواقف مختلفة تبعا للحكاية فى كل مقامة فتارة يتسول بالأدب، وتارة يعظ الناس، وتارة يوصى ابنه بالحرص على المال وتارة ينقد الشعراء والكتاب، وتارة ينقد المذاهب والمعتقدات، وأبرز صفات أبى الفتح أنه ذكى واسع الحيلة مثقف ضليع فى العلم والأدب محب

للمال، وفى بعض المقامات يظهر عيسى بن هشام بطلا للمقامة كما فى المقامة الإبليسية، ولم تظهر المرأة إلا فى أربع مقامات تتطلب المواقف فيها شخصية نسائية كساقية الخمرة، ولم تكن المرأة فى تلك الفترة تؤدى أعمالا مهمة فى المجتمع.

وهناك شخصيات ثانوية يمثلون بعض طوائف الشعب يختلفون فى ثقافاتهم واتجاهاتهم، ودائما تستجيب هذه الشخصيات لأبى الفتح وتتأثر بحيلته، وأحيانا تؤدى هذه الشخصيات أدوارا مهمة، وأحيانا أخرى لا تؤدى أدوارا مهمة كأن يكونوا ضيوفا على مائدة أو ندامى فى مجلس.

وقد كتب بديع الزمان هذه المقامات فى نيسابور ما بين سنتى ٣٨٢ - ٣٨٣، وكان بديع الزمان طموحا يريد أن يتربع على عرش الأدب، وكان أبوبكر الخوارزمى زعيما للأدباء فى نيسابور فاصطدم به بديع الزمان، وتطور الأمر إلى إقامة مناظرة بين الخوارزمى وبديع الزمان احتال فيها بديع الزمان للفوزبالمناظرة فألف قصيدة نسبها الى أبى بكر يسب فيها على بن أبى طالب والشيعة، ثم إنه استهزأ بأبى بكر ليثير أعصابه، وتحدى البديع أبا بكر أن يكتب رسالة يبدأ بآخرها وتقرأ من أولها، ولم يكن أحد يجيد ذلك إلا بديع الزمان، وفاز البديع بالمناظرة، ومرض أبوبكر ومات قبل أن يحول عليه الحول.

وأراد بديع الزمان أن يقدم جديدا غير الشعر والرسائل فكتب المقامات، وكان يجلس فى المسجد بعد العشاء ويقول: اقترحوا موضوعا أملى فيه مقامة، فيقترحون موضوعا يملى فيه ليعلم الجميع أنه يرتجل ولا يعد للمقامة، وأعجب الناس بالمقامات وأقبلوا عليها وذاع صيت بديع الزمان.

وتدور موضوعات المقامات حول الكدية وهى التكسب بالأدب، وتصور ظواهر اجتماعية، وقدشهد المجتمع جماعة من المكدين يعرفون بالساسانيين يقتحمون الأماكن العامة ويستجدون الناس، بعضهم ينشد شعرا وبعضهم يرقص قردا وبعضهم يدعى العمى الى آخر تلك الألاعيب التى لا يزال صداها فى المجتمع، وكان بديع الزمان يهدف الى نقد الأوضاع الفاسدة فى المجتمع.

وقد صورت المقامات جوانب من نفسية بديع الزمان كحبه للمال وحبه للترحال واعتزازه بنفسه وإشفاقه على الأدباء، ودافع فى مقاماته عن مذهبه البديعى وعاب الأسلوب المرسل الذى يجرى فيه الكاتب على البديهة، كما صورت المقامات جوانب من المجتمع غير الكدية والمكدين فصورت قطاع الطرق والواعظين المنافقين وسذاجة العامة واستغلال الدين لتحقيق الأطماع الفاسدة وتحدث عن مسئولية الحاكم عما يجرى فى قصره وفى بلده.

وتحدثت المقامات عن بعض الظواهر الأدبية وناقشت بعض القضايا فصورت مجالس الأدباء وما يجرى فيها من مناقشات ونظرة أدباء عصره الى الشعراء القدامى وحفلت بكثير من الأخبار والنوادر والأوصاف الأدبية، وصورت الحالات النفسية، وامتازت بالعرض المبهر والأسلوب الشائق.

وأسهمت المقامات فى تطور القصة القصيرة فى الأدب العربى، فنصف المقامات تقريبا تعد قصصا قصيرة فيها عناصر القصة من الزمان والمكان والشخصيات والعقدة والحل، وعالجت موضوعات نابعة من المجتمع أيام بديع الزمان، واتبعت المقامات مقاييس النقد فى عصرها، ولا يصح أن نطبق مقاييس النقد فى عصرنا على أدب العصر العباسى.

شياطين الشعراء :

فكرة شياطين الشعراء فكرة قديمة ظهرت فى العصر الجاهلى، وقالوا: إن لكل شاعر شيطانا يوحى إليه الشعر، فشيطان امرىء القيس عتيبه، وقيل: لافظ، وشيطان الأعشى مسحل، واستمرت فكرة شياطين الشعراء فى العصور التالية، وتحدث كل من جرير والفرزدق عن شيطانه الذى يوحى إليه الشعر، وكذلك تحدثوا فى العصر العباسى عن شيطان بشار بن برد وأبى نواس وغيرهما.

المقامة الإبليسية :

ولما جاء بديع الزمان الهمذانى فى القرن الرابع الهجرى كتب مقاماته كما أسلفنا ومنها المقامة الإبليسية، وتدور حول شياطين الشعراء، وميزة بديع الزمان

أنه جسد الشيطان وأبرزه وأجرى حوارا بين الشيطان وعيسى بن هشام بطل المقامة.

وتحكى المقامة أن إبلا لعيسى بن هشام ضلت وخرج صاحبها فى طلبها فقابل شيخا جالسا فسلم عليه، وطمأنه الشيخ أن إبله موجودة وسيعثر عليها، ويتضح بعد حوار طويل أن الشيخ أبو مرة وهو من شياطين الشعراء، ويكشف الشيخ عن أنه شيطان جرير، وأنه الذى أملى على جرير شعره.

وطلب الشيخ من عيسى بن هشام أن يسمعه شيئا من أشعار العرب، فأسمعه أشعار الفحول من الشعراء مثل امرىء القيس ولبيد، فلم يعجب الشيخ بشىء من ذلك، وقال: أنا أنشدك من شعرى، وأنشده قصيدة مطلعها:

بان الخليط ولو طوعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا

وهذه القصيدة من شعر جرير، وهى قصيدة مشهورة، وعاب عيسى بن هشام على الشيخ أنه يدعى شعر غيره، فلم يدافع الشيخ عن نفسه، وإنما طلب سماع شعر لأبى نواس، فأنشده عيسى ابن هشام فطرب الشيخ، فقبحه عيسى بن هشام لأنه ادعى شعر غيره، ولأنه طرب لشعر أبى نواس.

ودل الشيخ عيسى بن هشام على مكان يذهب اليه فيجد إبله الضالة، وكان حديثه على طريق الإلغاز كما سنوضح فى حديثنا التالى، وقد ألغز بالنحى عن المذبة التى يطرد بها الدباب، وجعل لهذا النحى لحية يباهى بها ويعنى شعر المذبة، وألغز بالحوت المصرور عن الذبالة المحبوسة فى زيت السراج وجعل النور عمامة له، وجعل حجر الطاحونة الذى يفرز الزيت أبا للحوت وطرف الذبالة ذهبا، والباقى ذنبا.

ثم كشف الشيخ عن شخصيته وأعلن أنه أبو مرة شيطان جرير، وهو الذى أملى عليه تلك القصيدة، وأكد أن لكل شاعر شيطانا يوحى إليه، ثم اختفى الشيخ أبو مرة، وتوجه عيسى بن هشام الى المكان الذى دله عليه، فوجد رجلا فى يده مذبة فعرف أنه أبو مرة الذى كان يحادثه منذ قليل، وناوله الرجل

مسرجة، ودله على غار مظلم، فدخل عيسى بن هشام فوجدالإبل وأخذها، وفوجىء عيسى بن هشام بأبى الفتح الاسكندرى، وطلب أبو الفتح من عيسى أن يحمله على جمل وأن يقدم له الطعام والشراب، ثم أخبر عيسى صاحبه أبا الفتح بخبر الشيخ، فأشار أبو الفتح إلى أنه احتال على أبى مرة حتى أخذ منه هذه العمامة التى يضعها على رأسه، فتعجب أبو الفتح لأن صديقه احتال على الشيطان.

التعليــــق :

شخصيات القصة : هذه المقامة تعد قصة قصيرة شخصياتها ثلاثة: عيسى بن هشام وإبليس، وأبوالفتح الاسكندرى، والبطل هنا عيسى بن هشام، وقد أسلفنا أن أبا الفتح ظهر بطلا فى أربعين مقامة، وهنا يمثل البطولة عيسى بن هشام ويلتقى بأبى الفتح فى آخر المقامة، ويظهر عيسى هنا رجلا مثقفا يحفظ الشعر وينسب القصائد الى أصحابها، وهى صفات ملازمة لبطل المقامات. ويتصرف عيسى بن هشام تصرفا طبيعيا فقد خرج يبحث عن إبله، ويرتاع حينما يرى الشيخ فجأة، ويتهم الشيخ حينما ينسب شعر جرير الى نفسه، ويحتقر تصرفات الشيخ الذى يخرج عن وقاره، ويطيع الشيخ حين يرشده الى مكان ضالته لأنه متلهف على العثور على إبله الضالة، ومن مظاهر ذكائه أنه فهم الألغاز التى ألقاها الشيخ، وبعد أن عرف أنه أبو مرة اهتدى الى أن الرجل الذى رآه بعد ذلك هو أبو مرة نفسه، أما أبو الفتح الاسكندرى فدوره محدود، وقد أكد ذكاءه بأنه احتال على إبليس نفسه.

أما الشيطان أبو مرة فقد تصرف تصرفات تتلاءم مع فكرة الإنسان عن الشيطان، فنحن نعتقد أن الشيطان قادر على صنع الخوارق، وأنه قادر على التشكل فى أشكال مختلفة، وأنه داعية الى الفسق مروج له.

أحداث المقامة :

تدور أحداث المقامة أو أحداث القصة القصيرة حول فكرة شياطين

الشعراء، وقد استطاع بديع الزمان أن يكون قصة قصيرة محكمة النسج مهد فيها للقاء الشيطان بعيسى ابن هشام بضياع الإبل وخروج البطل للبحث عن إبله، وتقيد بالفكرة التاريخية المتوارثة فى الأدب، والتزم الاسم المتوارث لشيطان جرير فسماه أبا مرة، وجسم الشيطان وأبرزه وحاوره، وأورد بعض الأوصاف الطبيعية للوادى والنهر والشجر والثمار والأنهار لتكون قصة شائقة، وحفلت بعنصر المفاجأة، فقد ارتاع عيسى حينما رأى الشيخ أمامه، وأذهلته المفاجأة مرة أخرى حينما عرف أن الرجل أبو مرة، وفوجىء مرة ثالثة حينما رأى أبا مرة أمامه وفى يده مذبة، وفوجىء رابعة حينما رأى إبله داخل الغار المظلم.

والأحداث تتوالى فى ترابط وانسجام لا تكلف فيه إذا لاحظنا فكرة الإنسان عن الشيطان وقدراته ومكره، ولا يبدو التكلف إلا فى المشهد الأخير من القصة، حين أعلن أبو الفتح أنه احتال على الشيطان وأخذ منه هذه العمامة، ولا نعرف كيف حدث ذلك ؟ والذى دفع بديع الزمان الى ذلك أنه دأب على إظهار أبى الفتح بمظهر المحتال العبقرى فأراد أن يبرز هذه الصفة عنده، ولم يكن هناك داع لذلك.

الألغاز : حفلت المقامات بالألغاز، وكان بديع الزمان يورد كثيرا من الألغاز ويوجه أسئلة ـ أحيانا فى صورة ألغاز يعجز السامعون عن حلها، ثم يوضح ما غمض منها، ويورد هنا ألغازا فيورد المذبة التى يطرد بها الذباب فى صورة ملغزة فقد صورها وعاء يدور حول القدور، لأن المذبة تدور حول القدور لطرد الذباب، وجعل الوعاء يباهى بلحيته إشارة الى الشعر الموجود فى المذبة، ثم أورد السراج فى صورة ملغزة فصوره حوتا محبوسا فى البحر إشارة الى الذبالة المغموسة فى الزيت، وهو يلدغ كالزنبور إذا لسع، ويعتم بالنور إشارة الى النار المشتعلة فى أعلاه، وجعل له أبا وأما، وجعل رأسه ذهبا لأن النار فى لون الذهب، واسمه لهب لأنه نار، وباقى الذبالة ذيل له، وهو يأكل الملابس كالسوس، وهو آفة الزيت لأنه يستهلكه، وهو شريب للزيت أكول للفتيل، يبذل ضوءه، ويهوى الصعود

بفعل الهواء، وكلها أوصاف دقيقة تحيط بالمنظر وتبرز المعنى وتكون صورة منسجمة، وتكشف عن عبقرية بديع الزمان.

الزمان والمكان :

تدور أحداث هذه القصة فى زمن قصير لا يتجاوز ساعات محدودة هى مدة الحوار الذى دار بين عيسى بن هشام وأبى مرة وتناشدا فيه الأشعار، ثم اللقاء الثانى بينهما أمام الغار، حيث دار حوار قصير دخل بعده عيسى الغار وعثر على إبله، ثم لقى أبا الفتح الاسكندرىّ ودار بينهما حوار قصير أنشد خلاله أبو الفتح بيتين اثنين.

وكذلك تدور أحداث القصة فى مكانين، المكان الأول بين المناظر الطبيعية الجميلة، حيث تقابل عيسى بن هشام وأبو مرة، والمكان الثانى أمام الغار، حيث قابل عيسى أبا مرة ثانى مرة، وأخذ عيسى المسرجة ودخل الغار الذى وجد فيه إبله، وتتوالى الأحداث ولا نرى زمنا ساقطا تجاوزه المؤلف كما يحدث فى بعض القصص القصيرة.

العقدة والحل :

العقدة هى المشكلة التى تثير تطلعنا وتجعلنا ننتظر الحل ونبغى الوصول الى النهاية، وتظهر العقدة هنا عند مقابلة أبى مرة، من هذا الرجل؟ وكيف عرف أنه ينشد إبله؟ وكيف عرف أن عيسى بن هشام صاحبها؟ وهل سيصدق فى وعده؟ وتزداد الدهشة حين نعرف أن الرجل أبو مرة، ويختفى فجأة ثم يظهر فجأة.

ويجيب الحل عن كل هذه التساؤلات حين نعرف أن الشيخ شيطان، وتجيب الفكرة المستقرة فى أذهاننا عن الشيطان عن باقى التساؤلات، فقد استقر فى الأذهان أن الشيطان قدير على صنع الخوارق وأنه يرانا ولا نراه، نقول: إن الحل طبيعى لا افتعال فيه.

الأســلوب :

تأتى المقامات عن طريق السرد الذى يتخلله الحوار، والمقامة الإبليسية تأتى على لسان عيسى بن هشام وإن كان بطلها فهو يقول : أضللت إبلالى فخرجت فى طلبها، ويتخلل الحوار السرد، ويمثل الحوار هنا ثقلا لا يقل عن السرد، فنرى الحوار بين عيسى وأبى مرة يحتل مكانة كبيرة وتتطور أحداث القصة عن طريق هذا الحوار ، وفى النهاية نرى حوارا قصيرا بين عيسى بن هشام وأبى الفتح الاسكندرى، ويدور الحوار حول قضايا تتعلق بالأدب، أولاها شياطين الشعراء، وثانيها تفوق الشعراء القدامى والتسليم بعظمتهم، وتلفتنا أبيات أبى نواس الى قضية افتتاح القصائد بالبكاء على الأطلال، كما سنوضح بعد قليل، ويكشف الحوار عن اهتمامهم بالألغاز واتخاذها دليلا على الذكاء والمقدرة الفنية .

ويحتوى الحوار على صراع أدبى، فالشيخ ينسب القصيدة لنفسه، وعيسى ابن هشام يعلن أنها من شعر جرير، والشيخ لا يهتم بشعر الشعراء الجاهليين وعيسى يعجب بهم وينشد لهم، والشيخ يعجب بأبى نواس، وعيسى يصفه بأنه فويسق عيار، ويكشف الحوار أيضا عن ذكاء الشيخ ومعرفته بكل الأمور .

وأسلوب المقامة مسجوع، وبديع الزمان يلتزم السجع وأسلوبه صورة صادقة لأسلوب الأدباء فى القرن الرابع الهجرى، وكانوا يعدون ذلك دليلا على المقدرة الفنية، ويهتم بديع الزمان بالازدواج، وهو تساوى الجملتين فى النغم الموسيقى، كما فى قوله : « وأشجار باسقة وأزهار يانعة » ويهتم بديع الزمان بالطباق والجناس أيضا، ومن الطباق والمقابلة قوله : « يسوؤك ما يسره، وينفعك ما يضره » ومن الجناس قوله : « دالتك وضالتك، ذهب ولهب وذنب » .

وبديع الزمان يعرف كيف يختار ألفاظه، وفى مطلع المقامة نراه يختار لكل شىء صفة ملائمة فالأنهار مطردة، والأشجار باسقة، والأثمار يانعة، والأزهار منورة، وكلها ألفاظ توحى بالجمال وتبعث النشوة فى النفوس، ولفظ راعنى يوحى بالفزع، ولفظ قبحك الله يوحى بالاشمئزاز والنفور، وتصغير فاسق ليوحى بحقارته، وهذا مقياس خلقى لا فنى، ويأتى بديع الزمان بصيغ المبالغة مثل أكول وبذول وشحاذ .

ويمزج بديع الزمان الشعر بالنثر، وأول الأشعار التى تقابلنا قصيدة جرير، وهو شاعر أموى ذائع الصيت، ثم ينشد أبو مرة أبياتا لأبى نواس يهاجم فيها البكاء على الأطلال ويدعو الى الحياة فى الحاضر، وسنعلق على هذه الأبيات بعد قليل، وثالث المجموعات الشعرية أبيات أنشأها بديع الزمان على لسان أبى الفتح الاسكندرى، وهكذا نرى أن الأبيات التى وردت فى المقامات بعضها لشعراء سابقين، وبعضها من إنشاء بديع الزمان الهمذانى.

وتحفل المقامات بالصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات، وقد تحدثنا عن الألغاز، وكلها صور بيانية ومنها نحى استعارة تصريحية، حيث شبه المذبة بالنحى، ويدور ويزهى ويباهى، استعارات مكنية، حيث شبه بإنسان وحذف المشبه به وأتى بما يدل عليه، وتتجمع هذه الصور وترسم صورة كلية فيهاالصوت واللون والحركة.

القيمة الأدبية :

تحدثنا عن المقامات وأن نصف المقامات تقريبا يعد قصصا قصيرة أسهمت فى تطور القصة العربية القصيرة، وكان الأدباء يتحدثون عن شياطين الشعراء، وجاء بديع الزمان فجسد الشيطان وأبرزه وواجهه وأنشده وسمع منه، وقد أثرت هذه المقامة الإبليسية فيمن جاء بعده، ونحسب أن أبا العلاء تأثر بها فى رسالة الغفران حين تحدث عن شياطين الشعراء، وكذلك تأثر بها ابن شهيد حين تحدث عن نقاد الجن حينما ذهب الى أرض الجن.

وتلفتنا هذه المقامة الى عدد من القضايا الأدبية، أولا تعظيم الشعراء القدامى، وكان نقاد العرب يفضلون القدامى تفضيلا مطلقا دون النظر الى الشاعر ومقدرته الفنية، ولذلك نرى عيسى بن هشام حينما طلب منه الشيخ أن يسمعه شيئا من أشعار العرب أسمعه من أشعار الشعراء الجاهليين، ولم يسمعه شعرا من صدر الإسلام أو من العصر الأموى أو العباسى، وقد تغيرت هذه النظرة شيئا فشيئا.

أما القضية الأدبية الثانية فهى بكاء الأطلال، فقد كان من عادة الشعراء العرب أن يبدءوا قصائدهم بالغزل وبكاء أطلال المحبوبة جريا على التقليد الجاهلى، كما قال امرؤ القيس فى مطلع معلقته.

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وجاء أبو نواس وكان شعوبيا يهاجم العرب، وكان محبا للخمر يشربها ويجاهر بها ويصفها، ودعا أبو نواس الى ترك البكاء على الأطلال ودعا عليها وحقر من شأنها ومن شأن العرب، ودعا الى الحياة فى الحاضر والتمتع بمظاهر الحياة الجميلة، كما نرى فى هذه الأبيات حيث يعلن أنه لا يبكى الأطلال ولا يحن الى سماع صوت حادى الإبل، ويدعو الى هجرها مادامت قد أقفرت من الحبيبة، ويشيد بليلة قضاها بين الكئوس والندامى وساقى الخمر اللطيف الطيب فى مظهره والعربيد فى حقيقة أمره.

وكانت هذه الدعوة جديرة بالاحترام لولا أنه دعا الى افتتاح القصائد بوصف الخمرة والكئوس والشاربين وما يتبع ذلك، ولولا أنه تغزل بالمذكر كما يتغزل بالمؤنث، والنفوس السوية تنفر من الخمر ومن الغزل بالمذكر، ولذلك لم تنجح هذه الدعوة إلا فى حدود ضيقة ومن المعروف أن الغزل بالمذكر طرأ على الشعر العربى بعد قيام الدولة العباسية ودخول الفرس بغداد، وكان الفرس يتغزلون بالمذكر فتأثر بهم بعض شعراء العرب.

* * *

المقامة الأسدية

حدثنا عيسى بن هشام قال: كان يبلغني من مقامات الاسكندرى ومقالاته ما يصغَى اليه النفور، وينتفض له العصفور، ويُروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة، وأنا أسأل الله بقاءه، حتى أرزق لقاءه، وأتعجب من قعود همته بحالته، مع حسن آلته (١) وقد ضرب الدهر شئونه (٢) بأسداد دونه الى أن اتفقت لى حاجة بحمص، فشحذت اليها الحرص، فى صحبة أفراد كنجوم الليل، أحلاس (٣) لظهور الخيل، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته (٤) ولم نزل نفرى اسنمة النجاد(٥) بتلك الجياد، حتى صرن كالعصى، ورجعن كالقسى (٦).

وتاح لنا واد فى سفح جبل، ذى ألاء واثل (٧) كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت الهاجرة بنا اليها، ونزلنا نغوّر ونغُور (٨) وربطنا الأفراس بالأمراس (٩)، وملنا مع النعاس، فما راعنا إلا صهيل الخيل، ونظرت الى فرسى وقد أرهف أذنيه، وطمح بعينيه، يجذّ قوى الحبل (١٠) بمشافره، ويخد خد الأرض بحوافره (١١) ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال، وقطعت الحبال، وأخذت نحو الجبال، وطار كل واحد منا الى سلاحه، فإذا السبع فى فروة الموت، قد طلع من غابه، منتفخا فى إهابه (١٢) كاشرا عن أنيابه بطرف قد مليء صلفا، وأنف قد حشى أنفا (١٣) وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى:

---

(١) الآلة الحالة أى مع حسن استعداده

(٢) شئون الدهر صروفه وأحداثه.

(٣) أحلاس جمع حلس الكساءالذى يوضع تحت البرذعة والمراد ملازمتهم لظهور الخيل.

(٤) الشأفة قرحة فى القدم، استأصلها أزالها.

(٥) أسنمة جمع سنام، والنجاد ما ارتفع من الأرض.

(٦) القسى جمع قوس أى من شدة الهزال.

(٧) الآلاء والأثل شجر.

(٨) نغور نهبط فى الأرض المنخفضة، ونغور ننام فى النهار.

(٩) الأمراس جمع مرسى الحبال. (١٠) يجذ يقطع. (١١) يخد يشق.

(١٢) الإهاب الجلد (١٣) الأنف الكبر والصلف العجب.

أخضر الجلدة في بيت العرب   يملأ الدلو إلى عقد الكرب [١]

بقلب ساقه قدره، وسيف كله أثر وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه، حتى سقط ليده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه، الى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وافترش الليث صدره، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجأ بطنه[٢]، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة فى جوفه، ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت ، وتركنا منها ما أفلت، وعدنا الى الرفيق لنجهزه.

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا   جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا الى الفلاة وهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد [٣] ونفد الزاد، أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع عنّ لنا فارس فصمدنا صمده [٤] وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزل عن حر فزسه، ينقش الأرض بشفتيه [٥]، ويلقى التراب بيديه، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى، وتحرم بجنابى، ونظرت فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل[٦] وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل [٧] وعارض قد أخضر، وشارب قد طر[٨] وساعد ملآن ، وقضيب ريان، ونجار تركى [٩]، وزى ملكى فقلنا مالك؟ لا أبالك، فقال: أنا عبدبعض الملوك، هم مِنْ قتلى بهم [١٠] ، فهمت على وجهى الى حيث ترانى وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالى مالك، فقلت:

---

(١) الكرب: الحبل الذى يشد فى أعلى الدلو على الجانبين، والخضرة السمرة أى من خالص العرب.

(٢) وجأ: شق.

(٣) المزاد: جمع مزادة وعاء الماء من الجلد، ضمرت كناية عن نفاد الماء.

(٤) صمدنا: قصدنا.

(٥) أى يقبلها بشفتيه.

(٦) العارض السحاب، المتهلل البارق.

(٧) ترقى تصعد، وتسهل تصير فى السهل أى تهبط والمراد يملأ الناظر بهجة .

(٨) العارض الخد، طر ظهر .

(٩) النجار الأصل.

(١٠) هم أراد وهو دون التصميم.

بشـرى لك وبك، أداك سيـرك الى فناء رحب وعـيش رطب، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنى ألحاظه، وينطق فتفتننا ألفاظه.

فقال: يا سادة، إن فى سفح الجبل عينا، وقد ركبتم فلاة عوراء [1] فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة الى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيدان [2] فقال: ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب، على هذا الماءالعذب؟ فقلنا : أنت وذاك ، فنزل عن فرسه وحل منطقته، ونحى قرطقته [3] فما استترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه [4] فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد الى السروج فحطها، وإلى الأفراس فحشها [5] والى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه، فقلت: يا فتى، ما ألطفك فى الخدمة، وأحسنك فى الجملة، فالويل لمن فارقته، وطوبى لمن رافقته، فكيف شكر الله على النعمة بك؟ فقال: ما سترونه منى أكثر، أتعجبكم خفتى فى الخدمة، وحسنى فى الجملة؟ فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة؟ أريكم من حذقى طرفا، لتزدادوا بى شغفا، فقلنا: هات ، فعمد الى قوس أحدنا فأوتره، وفوق [6] سهما فرماه فى السماء، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، وقال: سأريكم نوعا آخر، ثم عمد الى كنانتى [7] فأخذها، وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره، وآخر طيره من ظهره، فقلت: ويحك ما تصنع؟، قال : اسكت يا لكع [8] والله ليشدن كل منكم يد رفيقه، أو لأغصنه بريقه [9] فلم ندر مانصنع وأفراسنا مربوطة، وسروجنا

---

(١) فلاة عوراء: لا ماء بها.

(٢) الجنادب: تحب الحر وركوبها العيدان دليل الحر الذى لا يطاق.

(٣) المنطقة: الحزام والقرطقة قباء.

(٤) الغلالة: الثوب الرقيق، تنم تكشف.

(٥) حشها: جمع لها الحشيش.

(٦) أوتره: وضع فيه الوتر، فوق سدد.

(٧) الكنانة: وعاء السهام.

(٨) اللكع: اللئيم.

(٩) أغصنه بريقه: أجعله لا يبلغ ريق كناية عن هلاكه.

محطوطة، وأسلحتنا بعيدة. وهو راكب ونحن رجالة، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور [١]، وحين رأينا الجد، أخذنا القد [٢] فشد بعضنا بعضا، وبقيت وحدى لا أجد من يشد يدى، فقال: اخرج بإهابك عن ثيابك، فخرجت ، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه، وصار الى وعلى خفان جديدان، فقال: اخلعهما لا أم لك، فقلت: هذا خف لبسته رطبا فليس يمكننى نزعه، فقال عليّ خلعه، ثم دنا الى لينزع الخف، ومددت يدى الى سكين كان معى في الخف وهو في شغله، فأثبته في بطنه ، وابنته من متنه [٣]، فما زاد على فم فغره [٤]، والقمه حجره، وقمت الى أصحابى فحللت أيديهم، وتوزعنا سلب القتيلين، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه، وصار لرمسه [٥] وصرنا الى الطريق ، ووردنا حمص، بعد ليال خمس، فلما انتهينا الى فرضة [٦] من سوقها رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبنيه، بجراب وعصية، وهو يقول :

رحم الله من حشا   في جرابى مكارمه
رحم الله من رنـا   لسـعيد وفاطمـة
إنه خـادم لـكم   وهى لاشك خادمة

قال عيسى بن هشام: فقلت: إن هذا الرجل هو الاسكندرى الذى سمعت به، وسألت عنه فإذا هو هو، فدلفت إليه [٧]، وقلت: احتكم حكمك، فقال: درهم، فقلت:

لـك درهـــم فـي مـثلـه   مادام يسعدنى النفس
فأحسُب حسابك والتمس   كيمـا أنيـل الملتمس

---

(١) يرشق السهم يرميه، ويمشق يمزق
(٢) القد: جلد يوثق به.
(٣) المتن: الظهر.
(٤) فغر فمه فتحه، ألقمه حجره سد فمه.
(٥) الرمس: القبر.
(٦) الفرضة: الفرجة من الطريق.
(٧) دلفت إليه: أسرعت إليه.

شرح المقامة الأسدية

سميت هذه المقامة بالمقامة الأسدية لأن الجماعة التقت بالأسد فى أثناء رحلتهاالى حمص، وقد مهد بديع الزمان، على لسان عيسى بن هشام - لهذه الرحلة وبين الدافع إليها وهو ما سمعه عن أبى الفتح الاسكندرى من ذكائه وفصاحته وغوصه فى أعماق الأمور وجمعه بين الشعر والنثر، حتى إن عيسى بن هشام كان يدعو الله أن يمد فى عمر أبى الفتح حتى يلقاه، ومع ذلك فقد كان حظ أبى الفتح دون عبقريته ولم يحتل المكانة اللائقة به.

وتحدث عن الرحلة الى حمص فى صحبة فتيان جمعوا بين الطلعة البهية والشجاعة الفائقة التى جعلتهم ملازمين لظهور الخيل، وقد طالت الرحلة حتى أضنت الخيل وجعلتها كالعصى وكالقسى، ولم يغفل بديع الزمان وصف الطبيعة الجميلة، فوصف الوادى الذى يضم الأشجار الفارعة الطول تتهدل أغصانها كأنها عذارى يسرحن الضفائر وهنا ربط بين الطبيعة والمرأة.

وألجأتهم حرارة الصحراء الى اللجوء الى ظلال الأشجار وربط الخيول والاستسلام الى النعاس، وهنا تحدث المفاجأة الأولى، حيث اضطربت الخيول وقطعت الحبال وضربت الأرض بحوافرها وفرت نحو الجبال، وفزع الرجال الى سلاحهم، وإذا الأسد طالع عليهم يكشر عن أنيابه، وهنا يتقدم أحد الفتيان الشجعان لينازل الأسد، ولكن الفتى تخونه قدماه أمام منظر الأسد المهيب فيسقط على الأرض، وينظر الأسد الى مجموعة الرحلة فيتقدم الى الأسد فتى آخر ولكن الرعب يشل يديه فيسقط على الأرض ويجثم الأسد فوق صدره، ويسرع عيسى بن هشام لإنقاذه فيرمى الأسد بعمامته ليشغله عن الفتى، ويجد الفتى فرصة فيطعن الأسد طعنة نافذة، ويهلك الأسد ويهلك الفتى لما أصابه من الرعب ، ويحاول أفراد الرحلة استرداد الخيول الهاربة فيستردون بعضها ويفلت بعضها، ويدفنون رفيقهم ويحثون عليه التراب. ثم تستأنف الجماعة السير وتحدث المفاجأة الثانية حيث يظهر فارس ينزل عن فرسه ويلجأ الى عيسى بن هشامويعلن أنه عبدهارب من سيده بعد أن أراد السيد قتل عبده، وتسر الجماعة بالعبد الذى أهداه القدر إليهم، ويطنب عيسى بن هشام فى وصف العبد،

فوجهه يبرق ، وقوامه كالقضيب الريان، وجماله جمال الأتراك، وزيه زى الملوك، وفصاحته تستولى على الألباب .

وأشار عليهم الفتى بأن يلجئوا الى واد ظليل به عين ماء ليأخذوا قسطا من الراحة فأطاعوه وحطوا الرحال،ونزل الفتى عن فرسه وحط السروج عن ظهور الخيول، وحشّن الحشيش لإطعام الخيول ورش الأرض، وعرض عليهم أن يريهم من فنون حذقه ألوانا وركب فرسه وأرسل سهما فى الهواء وأتبعه بآخر شق السهم الأول، ثم رمى أحدهم بسهم أثبته فى صدره، ورماه بآخر خرج من ظهره، ثم أمرهم بأن يتخلوا عن كل ما معهم وأن يربط كل منهم أخاه بسير من الجلد ، واضطروا الى الخضوع، ونظر الفتى الى عيسى بن هشام فرآه يلبس خفين جديدين وطلب منه أن ينزعهما ، واحتج عيسى بن هشام بأنه لبس الخف رطبا ولا يمكن نزعه، ونزل الفتى لينزع الخف، وعندما شغل بنزعه أخرج عيسى سكينا كان قد خبأها فى الخف، وطعنه فى بطنه فخر قتيلا، وقام عيسى بن هشام فحل رفاقه وتوزعوا سلب القتيلين زميلهم وقاطع الطريق، وواصلوا الرحلة الى حمص فرأوا فى السوق رجلا معه صبى وصبية وهوينشد شعراً يطلب فيه العطاء لطفليه، وعرف عيسى أن الرجل أبو الفتح الاسكندرى، فسلم عليه وأعطاه ووعده بأن يقدم اليه كل ما يريد .

* * *

التعليق على المقامة

المقامة الأسدية قصة قصيرة مشوقة مستوفية لعناصر القصة من الأحداث والشخصيات والزمان والمكان والعقدة والحل، وفيها الإثارة والمفاجأة والتشويق، وتتضح فيها سمات أسلوب بديع الزمان، وسنتحدث عن كل ذلك بالتفصيل.

الأحداث - تدور هذه المقامة حول ما يجرى فى مجتمع بديع الزمان آنذاك، فقد صورت قبل كل شيء الاهتمام بالأدب حيث ذاع صيت أبى الفتح الاسكندرى وتحدث عنه الناس، ويشير أيضا الى سوء حظ بعض الأدباء حيث يحتلون مكانة أدنى مما يليق بهم، وقد كان بديع الزمان يشعر بتفوقه ويرى أنه مهضوم الحق لا ينال ما يستحق من إكرام وإكبار، وكان يشفق على الأدباء ويرثى لهم، وظهر ذلك فى بعض مقاماته.

وصورت المقامة الرحلة فى العصر العباسى حيث كانت هذه الرحلة على ظهور الخيل لأن أفرادها كانوا فرسانا ملازمين لظهور الخيل، وهذا لا يمنع أن بعض الرحلات كانت تتم على ظهور الإبل، وكانت الرحلات جماعية حيث كان المسافر يتعرض لسطوة اللصوص أحيانا، وللوحوش أحيانا أخرى كما حدث فى هذه الرحلة، وصور بديع الزمان مشقة السفر وصعود المرتفعات وهبوط الوديان حتى إنها تؤدى الى إرهاق الخيول، ولم يترك بديع الزمان تصوير بعض الأماكن الجميلة التى يلجأ إليها المسافرون ويحتمون بها من حرارة الشمس.

وتحوى القصة حادثين مفاجئين أضفيا على القصة جدة وتشويقا، والحدث الأول طلوع الأسد على الجماعة، وقد أبدع بديع الزمان فى وصف هذا الموقف حيث صور الأسد فى صورة مفزعة أفزعت الخيول وأفزعت الجماعة، وهذه حقائق معروفة، وصور بديع الزمان شجاعة الفتيان حيث تقدم فتى نشيط لمنازلة الأسد، ووصف الفتى بأنه عربى أصيل، ولكن هيبة الأسد شلت حركته فسقط على الأرض، وتقدم فتى آخر لمنازلة الأسد فحدث له ما حدث لسابقه، واستطاع بديع الزمان أن يشغل الأسد حتى طعنه الفتى فخر الأسد قتيلا، وهلك الفتى لما أصابه من الرعب بعد أن برك الأسد على صدره.

أما الحادث الثانى فبطله قاطع طريق ظهر فى صورة فارس، وأضفى بديع الزمان على هذا الفارس صفات جسمية ونفسية ساعدت على ميل الجماعة إلى هذا الفتى وتصديقه وتتلخص الصفات الجسمية فى جمال الوجه والقوام والشباب النضر وقوة الساعد وأضاف إلى ذلك جمال الزى، كما أضفى على الفارس صفات نفسية تتلخص فى الذكاء والقدرة على الإيهام بما يريد ، فهو يقبل الأرض بشفتيه ويلمسها بيديه ويقبل الركاب ويدعى أنه عبد هارب من سيده بعد أن هم سيده بقتله، ويعلن أنه من الان عبد لعيسى بن هشام، وترحب به الجماعة.

ويستمر الفارس فى تمثيل دوره الذى رسمه بإتقان فيشير عليهم بالنزول فى مكان ظليل ، وتقبل الجماعة اقتراحه، ويجردهم من كل سلاح ليضمن عدم المقاومة، ويركب حصانه ويوجه سهمين الى أحد أفراد الجماعة فيقتله، ويجردهم حتى من ملابسهم، ويشتاق القارىء والسامع الى معرفة النهاية حيث طعن عيسى بن هشام قاطع الطريق فأرداه قتيلا.

والأحداث هنا مترابطة وإن تنوعت وسارت فى اتجاهات متعددة، ويلقى سير الأحداث قبولاً وانبهاراً، أما الجزء الأخير من المقامة فيبقى بمعزل عند سير الأحداث التى تكون سير القصة، حيث يصل الركب الى حمص ويلقى أبا الفتح الاسكندرى وهو يحتضن صبيا وصبية وينشد شعرا يطلب فيه العطاء ولا دخل لهذا الجزء فى تطور أحداث القصة.

الشخصيات - تضم القصة شخصيات رئيسة وأخرى ثانوية، وقد عرفنا أن بديع الزمان اتخذ للمقامات راوية وبطلاهما عيسى بن هشام وأبوالفتح الاسكندرى وهما شخصيتان رئيستان، وهنا يتقاسم البطولة شخصيتان هما عيسى بن هشام وقاطع الطريق ، فعيسى بن هشام يروى القصة ويقودالرحلة ويشغل الأسد عن الفتى الذى نازله حيث يرمى الأسد بعمامته فيتمكن الفتى من قتل الأسد، ثم يستقبل عيسى بن هشام قاطع الطريق الذى أدعى أنه عبدهارب ويجرى الحديث معه ثم يسايره الى المكان الظليل وأخيرا يدبر لقتل

اللص حيث يتظاهر بعدم قدرته على خلع خفه ويستل سكينا كان قد خبأها ويطعن بها اللص فيرديه قتيلا، ثم يواصل السير حتى يلقى أبا الفتح ويحادثه ويقدم العطاء الذى يطلبه.

أما الشخصية الأساسية الأخرى فهو قاطع الطريق ، وقد أوضحنا الدور المهم الذى قام به، وهو دور مؤثر فى الأحداث ، وهناك شخصيات ثانوية، وبعض هذه الشخصيات يؤدى دوراً مهماً، وهنا يبرز الفتيان اللذان تقدما لمنازلة الأسد، وكذلك يؤدى الأسد دوراً بارزاً فى القصة ، وقد ساعدت هذه الشخصيات فى خلق الصراع وإعطاء الأحداث حيوية وتشويقا، أما سائر الشخصيات المرافقة فى الرحلة فتؤدى دورا ثانويا غير بارز ، وكذلك أبو الفتح الاسكندرى جاء دوره فى هذه القصة ثانويا لم يزد على إنشاء الشعر وطلب العون وإن كان عيسى بن هشام قد خرج مرتحلا يقصد لقاء أبى الفتح الاسكندرى.

الزمان والمكان ـ فى المقامة الأسدية تتعدد الأماكن حيث تخرج الجماعة فى رحلة قاصدين حمص، وتقطع الصحراء ويقابلون الأسد فى أثناء سيرهم، ثم يلقون قاطع الطريق ويميل بهم الى مكان ظليل به عين ماء وأشجار متهدلة الأغصان، ثم يواصلون السير فى الصحراء حتى يصلوا إلى حمص ويلقون أبا الفتح فى أحد أسواقها، وتتنوع المناظر هنا بين صحراء قاحلة ومكان عامر بالمناظر الطبيعية الجميلة وسوق يغص بالناس ويقف فيه أبوالفتح الاسكندرى ينشد أشعاره ويطلب العطاء، وتجرى الأحداث فى أماكن ملائمة لها.

ويطول الزمان بعض الشىء حيث تخرج القافلة فى رحلة قاصدين حمص، وهى رحلة طويلة شاقة، وتستغرق منازلة الأسد وقتاً، ويستغرق قاطع الطريق وقتاً فى إظهار خداعه وفنون الاعيبه، ويستغرق أبو الفتح وقتاً فى إلقاء أشعاره والتحايل لأخذ العطاء حتى يحقق مأربه، ولكن الزمن لا يطول كثيرا ويظل ملائما لأحداث القصة القصيرة، ومن الممكن أن تستغرق الرحلة كلها يوما أو بعض يوم.

العقدة والحل - العقدة هى المشكلة التى تثير تطلعنا وتجعلنا نتطلع الى معرفة الحل، ويحسن أن يأتى الحل متولدا من الأحداث لا تكلف فيه، وفى المقامة الأسدية عقدتان بارزتان، ولكل عقدة منهما حل مناسب، ونرى العقدة الأولى فى ظهور الأسد الذى يواجه الجماعة ويبث الرعب فى كل شىء حتى إن الخيل تقطع الحبال وتهرب الى الجبال، وهنا يتطلع القارىء الى الحل، ويأتى الحل مناسبا حيث يتقدم فتى. شجاع لمنازلة الأسد ولكن تخونه قدماه، ويتقدم آخر فيسقط السيف من يده، ويفترش الأسد صدره، ثم يتمكن الفتى من طعن الأسد، ويموت الأسد ويموت الفتى لما أصابه من الرعب، ويتقبل الذوق والخيال هذا الحل المناسب.

ثم تظهر العقدة الثانية حين نكتشف أن الفارس القادم ما هو إلا قاطع طريق، ونتساءل: ماذا ستفعل الجماعة بعد أن جردهم اللص من ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم؟ ويأتى الحل مناسبا حيث يدعى عيسى بن هشام أن لا يستطيع خلع خفه الذى لبسه رطبا، ويتقدم اللص ليخلع الخف، ويطعنه عيسى بن هشام بسكين كان قد خبأها فى خفه، ويموت اللص، وتخرج الجماعة من المأزق، وهكذا يضع بديع الزمان لكل عقدة حلا ملائما متولدا من الأحداث.

التصوير : حفلت المقامة بالصور الجزئية والكلية، وتتنوع هذه الصور بين التشبيه والاستعارة والكناية، وبعض هذ الصور قديم مطروق، وبعضها جديد يزخر بالحياة والعاطفة، ومن التشبيهات المطروقة قوله فى وصف الخيل. (صرن كالعصى ورجعن كالقسىْ)، ويقول: (أفراد كنجوم الليل) وهو تشبيه مطروق ولكنه معبر يوحى بالعظمة والاشراق، ومن الكنايات قوله: (يصغى إليه النفور) وينتفض له العصفور) وهما كنايتان عن قوة التأثير، ومنها (ركب الجنادب العيدان) كناية عن شدة الحرارة .

ومن التشبيهات الجديدة التى تزخر بالعاطفة قوله: (كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر) يشبه الأشجار المهتدلة الأغصان بفتيات يسرحن شعورهن. ومن الاستعارات قوله: (ضرب الدهر بأسداد دونه) وهى استعارة تصريحية، شبه العقبات التى تواجه أبا الفتح بالأسداد الحسية، وحذف المشبه،

ومن الاستعارات المكنية قوله: (شحذت الحرص) شبه الحرص بالسيف وحذف المشبه به ، وأتى بما يدل عليه وهو الشحذ .

ويرسم بديع الزمان صوراً كلية تحقق الغرض وتبعث الإعجاب، ومن ذلك قوله فى وصف الأسد : (فإذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه، منتفخا فى إهابه، كاشرا عن أنيابه، بطرف قدملىء صلفا، وأنف قد حشى أنفا، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب) ، ويقول فى وصف الفتى قاطع الطريق : (وجه يبرق برق العارض المتهلل، وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل، وعارض قد أخضر، وشارب قد طرّ، وساعد ملآن، وقضيب ريان، ونجار تركى، وزى ملكى، وكلها صور تفيض بالعاطفة وتوحى بالمراد .

الأسلوب - تأتى المقامة عن طريق السرد الذى يتخلله الحوار، وهذا يخلق جدة ونشاطا ويبعد الملل والرتابة، ويأتى السرد على لسان عيسى بن هشام الراوية، وفيه طرافة وتنويع، فهو يتحدث عن نفسه، ويتحدث عن أبى الفتح الاسكندرى وفصاحته وبراعته، وفى خلال السرد يصف الفرسان ويصف قاطع الطريق ويصف الأسد ويصف الطبيعة الجميلة والقاحلة، فهو يصف البيئة بكل مظاهرها، وهو لا يكتفى بالوصف الظاهرى وإنما يحلل النفسيات كما رأينا، فهو يصور نفسية الأسد والخيول ونفسية الرفاق وقاطع الطريق وأبى الفتح الاسكندرى، وفوق ذلك فإنه يحقق المفاجأة ويخلق الصراع ويحكم العقدة والحل، وقدرأينا المفاجأة فى ظهور الأسد، وفى تكشف حقيقة الفارس القادم، كما أنه يثير الصراع بين الأسد والجماعة، وبين قاطع الطريق والجماعة، وبذلك يحقق الإثارة والتشويق.

ويمزج بديع الزمان بين النثر والشعر، ويقتبس لمحات من القرآن الكريم، ويأتى ببعض الأمثلة، فحين يتحدث عن دفن رفيقه الذى مات من الرعب يقتبس البيت :

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا   جزعنا ولكن أى ساعة مجزع؟

وفى وصفه للفتى الأول الذى تقدم لمنازلة الأسد اختصر بيتين للشاعر اللهبى وأخرجهما فى بيت واحد، والبيتان هما :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملأ الدلو الى عقد الكرب
وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة فى بيت العرب

وقد اختصرهما فى بيت واحد وغير ترتيب الشطرات فقال:

أخضر الجلدة فى بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب

واستعان بلمحات من القرآن الكريم حين قال: (خاصم الولدان وفارق الجنان)، وفى القرآن الكريم فى حديث عن الجنان: ﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** ﴾ وأتى ببعض الأمثلة العربية فهو يقول عن الفتى الذى أرعبه منظر الأسد: (سقط ليده وفمه) وهناك مثل عربى: (لليدين وللفم) وفيه دعاء بالهلاك، وقال بديع الزمان لقاطع الطريق: (لا أب لك، ولا أم لك) وهو مثل عربى، وقال عن قاطع الطريق حين سقط قتيلا: (ألقمه حجره) كناية عن الصمت الأبدى، وهو مثل أيضا.

وبرع بديع الزمان الهمذانى فى اختيار ألفاظه، فهويختار الألفاظ الموحية التى تصور الموقف وتوحى بالمشاعر التى يولدها الموقف، وقدرأينا وصفه للأسد حيث يقول: (فإذا الأسدفى فروة الموت) حيث جعل فروة الأسد تضم الموت مجسما، ونرى الكلمات: (منتفخا، كاشرا عن أنيابه، صلفا، أنفا)، ونرى قوله: (نفرى أسنمة النجاد) وفى وصف فزع الخيول يقول: (يجذ قوى الحبل، ويخد خد الأرض) وكذلك أوصافه للفتى قاطع الطريق، وغير ذلك.

وكان بديع الزمان يميل الى اختيار الألفاظ الغامضة بقصد تعليم النشىء اللغة العربية الأصيلة، وهنا يقول: (شحذت الحرص، أحلاس لظهور الخيل، نستأصل شأفته، نفرى أسنمة النجاد، نحى قرطقته إلى آخر هذه الألفاظ.

ويأتى بالأساليب الإنشائية يمزجها بالأساليب الخبرية، والأساليب الإنشائية تثير الانتباه وتوقظ الأذهان وتطرد الملل، ومن قوله: (لا أبالك) وهو أسلوب تعجب سماعى، وقوله: (يا فتى، ياسادة) وهو نداء للتعظيم، وقوله: (خذوا الماء) أمر للنصح، وقوله: (ألا تقيلون؟) استفهام للتقرير حيث دخلت الهمزة على نفى، وقوله: (ما ألطفك) أسلوب تعجب، وقوله: (اسكت يالكع) أمر

ونداء للتحقير، وقوله: (والله ليشدن) قسم للتوكيد، وقوله: (رحم الله) أسلوب خبرى لفظا إنشائى معنى أمر للدعاء.

وأسلوب بديع الزمان أسلوب مسجوع، وقد ساد هذا المذهب فى القرن الرابع الهجرى وهو القرن الذى عاش فيه بديع الزمان الهمذانى، وصار الاتيان بالسجع والمحسنات البديعية من مظاهر المقدرة والتفوق، ويلتزم بديع الزمان بهذا الأسلوب فى كل كتاباته،وحين نقرأ الفقرة الأولى نرى السجع واضحا ونرى الازدواج ويراد به تساوى الجملتين فى النغم الموسيقى مثل قوله: (يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور) وقوله: (يمتزج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة).

ونرى الطباق والجناس، ومن الطباق قوله: (ترقى العين وتسهل) وقوله: (فارقته ورافقته) ومثله المقابلة وتكون بين جملتين مثل: قعود همتة بحالته مع حسن آلته) وقوله: (تألفنا منها ما ثبت وتركنا منها ما أفلت).

ونرى الجناس أيضا، ويراد به تشابه الحروف مع اختلاف المعنى مثل: (مقامات ومقالات) ومثل: (رقة ودقة)، (بقاءه ولقاءه) ، (ونغور ونغوّر).

* * *

خطبة أبى جعفر المنصور العباسى

عندما قبض أبو جعْفر المنصور على عبد الله بن حسن بن على وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته خطب فى خراسان معقل الشيعة حيث صعد المنبر فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال:

يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم – والله – والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير، فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه.

ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فدس إليه معاوية وقال له: أجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه، فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة فخذلوه وأسلموه حتى قتل.

ثم قام من بعده زيْد بن الحسن فخدعه أهل الكوفة وغزوه وأظهروه وأسلموه، وقد كان أتى محمد بن على، فسأله محمد بن على ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم زيد خروجه فقتل وصلب بالكناسة.

ثم وثب علينا بنو إمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ، فقر الحق مقره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة.

* * *

الشيعة أنصار علي بن أبي طالب.

تلطخ إتى بما يسيء إلى سمعته، انسلخ خرج مما هو فيه.

الكناسة موضع بالكوفة، ترة ثأر.

الجهل سرعة الغضب وفساد الرأي، الخلة الخصلة والصفة.

* * *

أبو جعفر المنصور

ثانى الخلفاء العباسيين، وكان العباسيون منذ أوائل القرن الثانى الهجرى قد بدءوا يعدون لانقلاب يطيح بالدولة الأموية ويقيم دولة يرأسها أهل البيت، واتخذ العباسيون خراسان مقرا لدعوتهم، لأن الفرس كانوا يدينون بالولاء لآل البيت وهم بطبيعتهم يميلون إلى تقديس حكامهم، ثم إن الفرس كانوا يكرهون بنى أمية، لأن بنى أمية حصروا السيطرة فى يد العرب ولم يجد الفرس المساواة مع العرب ولا العدل بينهم.

وجعل العباسيون الدعوة لآل البيت ولم يحددوا أحدا فى بادئ الأمر خشية بطش الأمويين، وكانوا يعدون الجيش سرا إلى جانب الدعوة السياسية ، وأخيرا تمكن جيش خراسن بقيادة أبى مسلم الخراسانى من هزيمة جيش الأمويين ، وأعلن قيام الدولة العباسية ، وكان أول خليفة عباس أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ومات السفاح سنة ١٣٦ ، وتولى أبو جعفر المنصور ، وكان ذكيًا شجاعًا ، وكان قاسيًا لا يرحم ، وقتل قائده أبا مسلم الخراسانى حين شك فيه .

وعند قيام الدولة العباسية ثار العلويون على أبناء عمومتهم ، وأعلنوا أن العلويين أحق بالخلافة ، ولم يجد العباسيون بدا من القبض عليهم والإلقاء بهم فى السجون ، وعندما ثار عبد الله بن حسن بن على قبض المنصور عليه وعلى من كان يناصره .

وألقى أبو جعفر هذه الخطبة فى خراسان حتي يجتذب أهل خراسان وينفرهم من العلويين .

* * *

شرح الخطبة

عندما قامت الدولة العباسية ثار العلويون وأعلنوا أنهم أحق بالخلافة لأنهم أولاد فاطمة بنت النبى ولأنهم أبناء على ابن عم النبى عليه السلام ، وعبثا حاول العباسيون استمالتهم فقبضوا على زعماء العلويين ، وقبض المنصور على عبد الله ابن حسن بن على وقبض على أنصاره وألقى بهم فى السجون .

ورأي المنصور أن يجتذب إليه أهل خراسان أنصار أهل البيت ، والعباسيون والعلويون من آل البيت ، فألقى المنصور هذه الخطبة فى خراسان وأشاد بأهل خراسان ونسب إليهم الفضل فى قيام الدولة العباسية ، ثم إنه شنع على العلويين لينفر أهل خراسان منهم ، وأعلن أن العباسيين أيدوا العلويين فى بادئ الأمر ولم ينافسوهم فى طلب الخلافة ، ولكن على بن أبى طالب لطخ سمعته وأثار عليه أنصاره حتى قتلوه ، وهو يشير إلي قصة التحكيم فى معركة صفين ، فقد أوشك جيش على على الانتصار ، فلجأ معاوية وعمرو بن العاص إلى حيلة حيث رفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله يحكم بيننا ، وهنا انقسم جيش على فأيد التحكيم طائفة ، وعارضه طائفة أخرى ، ولم يجد على بن أبى طالب بدا من إيقاف الحرب ، واختار أبا موسى الأشعرى ممثلا له ، واختار معاوية عمرو بن العاص ، واتفق الحكمان على خلع على ومعاوية ، وصعد أبو موسى المنبر وأعلن خلع صاحبه على ، ثم صعد عمرو بن العاص وأعلن تثبيت صاحبه معاوية ، وهنا انقسم جيش على وخرج عليه الذين كانوا يعارضون التحكيم وسموا الخوارج ، ولجأ على إلى حربهم .

ثم أشار أبو جعفر إلي موقف الحسن بن على حيث بايعه الشيعة بالخلافة ولكنه آثر السلام وأرسل إلي معاوية بذلك ، وعرض عليه معاوية أن يرسل إليه مائتى ألف درهم كل عام وصدق الحسن ووقع علي التنازل عن الخلافة ، وقصد إلي معاوية ولكن معاوية دس له السم فى شرابه ومات ، ولذلك يقول فيه المنصور، فوالله ما كان فيها برجل .

ثم بايع الشيعة الحسين ، وأرسل إليه أهل العراق يحثونه على المسير إليهم ووعدوه بمناصرته ، وصدق الحسين وتوجه إليهم ، وكان يزيد بن معاوية قد أرسل جيشا إلي العراق فتخلى أهل العراق عن الحسين ، وتركوه مع أهله من النساء والصبيان وقتل الحسين ومن معه ، وجذت رأسه وأرسل بها إلي يزيد بن معاوية .

وبايع الشيعة زيد بن على بن الحسين ، ونصحه أبناء عمه من العباسيين الا ينخدع بدعوة أهل العراق ولكنه لم ينتصح ، وكان مصيره القتل والصلب .

وبعد أن أظهر المنصور مساوئ العلويين وشنع عليهم اتجه إلى الأمويين ذاكرا جرائمهم وتنكيلهم بآل البيت دون أن يكون هناك ثأر بين آل البيت والأمويين ، وأعلن أمام أهل خراسان أنهم أصحاب الفضل فى نصرة آل بيت النبى عليه السلام وقيام دولة العباسيين والقضاء على أعدائهم ، وإعادة الخلافة إلى وضعها الصحيح فى آل بيت رسول الله .

وأخيرا عاد إلي الطعن على العلويين وأعلن أنهم حقدوا على أبناء عمومتهم الذين خلصوهم من قبضة الأمويين بعد أن جبنوا وضعفوا أمام أعدائهم من بنى أمية ، ووصف العلويين بالجبن والحقد .

وبذلك حقق المنصور هدفه من الطعن على العلويين وعلى الأمويين وتأكيد حق العباسيين فى الخلافة ، وإجتذاب أهل خراسان إليه ، وتبرير ما فعله بالعلويين من القبض عليهم وسجنهم .

* * *

نقد الخطبة

اشتهر العباسيون بالفصاحة وبرز منهم خطباء كثيرون منهم أبو جعفر المنصور الخليفة الثانى ، ويبدو فى هذه الخطبة فصاحة المنصور وتدفقه مع الطبع وعدم التكلف ويمتاز أسلوبه بالسهولة والوضوح ؛ ونادرا ما نرى كلمة تحتاج إلي تفسير ، كما أنه لا يتكلف المحسنات البديعية ، وقد يأتى الطباق والجناس عفوا لإبراز المعنى أو لتوليد الموسيقى ، وقد اقتبس الخطيب آية من القرآن الكريم هى قوله تعالى : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

وتمثل بالآية فى حديثه عن القضاء على بنى أمية ، كما أنه اقتبس بيتا من الشعر فى حديثه عن العلويين وموقفهم من العباسيين ، والبيت هو :

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

وقد بدأ الخطبة بأسلوب نداء (يا أهل خراسان) والنداء للتعظيم ، ثم وصف أهل خراسان بصفات ثلاثا : شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، والعطف هنا لبيان تعدد المزايا ولتأكيد الفضل .

وفى حديثه عن العلويين وصفهم بقوله : أهل بيتى ، وأضاف إلى ياء المتكلم لبيان أنهم كانوا قريبين من قلبه ، وأكد ذلك بإن ، وأتى باسم الإشارة (هؤلاء) لاستحضار الصورة ، وأتى بأسلوب القسم (والله) حين ذكر أنهم تركوا الخلافة للعلويين ولم ينازعوهم فيها ، وأتى هنا بطباق يتطلبه لموقف (بقليل ولا كثير) ، وهذا يبرز عدم تعرضهم لأبناء عمومتهم .

وحين تحدث عن على بن أبى طالب عائبا عليه أتى بلفظ تلطخ وهو لفظ منفر يوحى بارتكابه عملا مشينا ، والفعل (حكم) مضعف والتضعيف يفيد الكثرة لأن الحكمين سلباه إرادته ، وكانوا يقولون : الحكم لله ، وأتى بمعطوفات تفيد الشمول فعطف اختلفت ووثبت على افترقت ، وأتى بمعطوفات تفيد سخط الناس جميعا : (شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته) وفي حديثه

عن الحسن بن على وصفه بقوله : (فوالله ما كان فيها برجل) لأنه تنازل عن الخلافة ، وأكد ذلك بالقسم (والله) ، وأظهر شذاجته بأنه صدق وعد معاوية له بأن يجعله خليفة من بعده ، ولذلك قال : خدعه ، والفعل انسلخ يوحى بخروجه من الأمر تماما ، وأكد هذا التنازل بقوله : وسلمه إليه ، وفى حديثه عن الحسين ذكر الخديعة أيضًا وكررها فى حديثه عن زيد بن على ليفيد أن العلويين لا يصلحون للأمور السياسية ، وعطف الأفعال : غروه وأظهروه وسلموه ليؤكد ذلك .

وفي حديثه عن العباسيين أتى بما يؤكد ذكاءهم وبعد نظرهم ، وقد للتأكيد ، وعطف ناشده وحذره علي سأله ليفيد الإمعان فى الطلب ، ولم فى قوله : (لم يقبل) لتأكيد النفى ، وفي حديثه عن بنى أمية أظهر ظلمهم وقسوتهم فأتى بالفعل وثب ، وعطف عليه آماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا ، ولتأكيد عدوانهم ذكر أنه لم يكن بينهم ثأر قديم ، وأكد ذلك بالقسم ، وحصر أسباب العدوان فى بنى أمية وأتى بأسلوب قصر أداته النفى والاستثناء ، وأكد بكله (وما كان ذلك كله إلا منهم) .

ثم عاد إلي بيان فضل الخراسانيين فقال : حتى ابتعثكم الله لنا شيعة ، وجعلهم من جنود الله أرسلهم لنصرة آل بيته ، وأهل خراسان أسلوب نداء للتعظيم حذفت أداته ، وأتى بطباق جميل : (ودفع بحقكم أهل الباطل) ، وفى قوله : ميراثنا ، أضاف الميراث إلى العباسيين لتأكيد شرعية خلافتهم ، والفعل قر يفيد الثبوت والدوام ، وقر ومقر جناس ، وظهر السجع هنا : قر مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وهو يولد موسيقى ظاهرة ، والفعلان الماضيان : فضلنا وأكرمنا لتأكيد الحدوث ، وبيت الشعر يصف العلويين بالجهل والجبن – وهذه الخطبة من الخطب السياسية .

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب: ١٤٠١٠ / ٩٩

الترقيم الدولى: 3 - 028 - 315 - 977

دار التوفيق النموذجية للطباعة
أوفست - تحضير أوفست - كمبيوتر
ت : ٥١١٥٣٠٤